كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

قصة حياتي

لأستاذ الجيل : أحمد لطفي السيد



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير: كمال النجمي

سكرتير التحرير: عايد عياد

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

KITAB AL-HILAL

العدد ٣٧٧ – رجب ١٤٠٢ – مايو ١٩٨٢

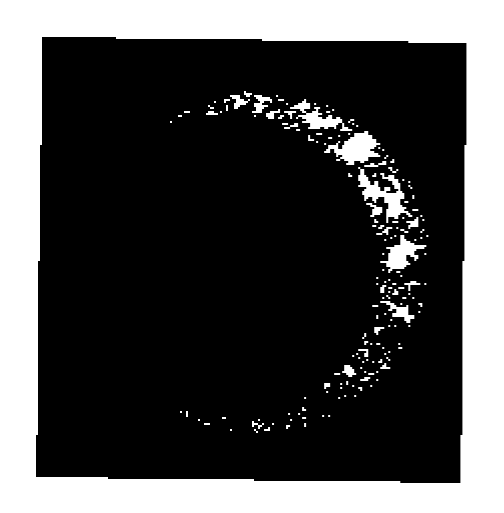
No. 377 — May 1982

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان ونصف جنيه مصرى بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان اربعة جنيهات مصرية أو مايعادلها بالعملات الحرة بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرة دولارات بالبريد العادى وعشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج.م.ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة أعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



الغلاف بريشــــــة
الفنانة سميحة حسنين

قصة حياتى

لأستاذ الجيل

أحمد لطفى السيد

دار الهلال

تقديم

بقلم الأستاذ طاهر الطناحى

فى ١٥ يناير ١٩٦٢ أكمل أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد التسعين من عمره .. وقبل اثنى عشر عاما — أى فى يناير سنة ١٩٥٠ .. — كنت أزوره فى منزله فدار الحديث بينه وبيني عن أكبر أمنياته لوطنه مصر ، وقد قارب الثمانين ، فقال في اهتمام ورغبة فى أعماق نفسه : « أتمنى لمصر أمنيتين :

— الاولى أن ترفع عنها معـــاهدة سنة ١٩٣٦ التى أصبحت غير ذات موضوع ، وأن يتحقق لها الجلاء التام ، ويتوطد الاستقلال ، ويصان من كل نقص وعبث وريبة ، فان مصر لن يصلح لها حال ، أو يستقر فيها نظـــام ما دامت هذه المعاهدة قائمة .

— أما الامنية الثانية ، فهى أن يكون هذا العام (عام ١٩٥٠) عام الاعمال لا عام أقوال ، وعام اصلاح لا عام نقاش وجدل ، فان الجدل والمنازعات تؤخر الشعوب . ولنتذكر ما قاله عمر بن الخطاب : « اذا غضب الله على قوم سلط عليهم الجدلَ ، ومنعهم العمل » .

ثم دار الحديث بينى وبينه عما كان يكتبه فى صحيفة « الجريدة » التى كان يتولى رياستها فى أوائل هذا

القرن ، وما كان يطالب به من حقوق لمصر ، وعن أمانيه الوطنية فى ذلك الحين ، ثم ما تحقق منها بعد نحو أربعين عاما ، فقال : « كنت أطلب لمصر حرية ودستورا ، وتعليما حرا ، وكرامة وطنية ، وتهذيبا ، لان الحرية هى الحياة ، بل أعز من الحياة ، وهى لرقى الانسان كالروح للأبدان . وقد علمنا التاريخ ان الامة المصرية فى أزمان بعيدة حكمت بالقوة القاهرة ، ولم يكن للحكم العلمى فى أمرها نصيب – ونريد بالحكم العلمى الحكم المنطبق على قواعد علم السياسة ، كما كان ذلك عند بعض الامم المعاصرة لها ، كحكومات اليونان قبيل الميلاد ، فقد كانت قاعدة حكومة مصر هى « الاستبداد » فى تلك الاعصر الخالية ، فكان ما يشرعه الحاكم من القوانين ، وما يأتيه من الاعمال ملحوظا فيه مصلحة الحاكم بالذات ، وقد يكون بعضه منطبقا على مصلحة الامة بالعرض ، أو من غير قصة . وكانت الحكومات دائما أجنبية تخالف الامة فى الجنس أو فى الدين واللغة أو فى العادات والاخلاق، أو فيها جميعا .

« كانت الامة بذلك فى غاية التحفظ والاحتراس من أن تخلص لحكومتها اخلاصا حقيقيا . وكانت مضطرة لمصانعة الحاكم ، تظهر له الطاعة بالاقوال والافعال ، ولكن قلوبها عاصية كارهة .

« بقيت هذه الاحساسات فى الامة أزمانا طوالا متوارثة ، فأفسدت كثيرا من الانفس ، وأضاعت الحرية العقلية ، والشجاعة الادبية التى هى طبيعة فى النفوس . وذلك هو ما كنت أنادى به ، وأتمنى الحرية بسببه ، حتى تحققت لمصر .

« أما الدستور ، فكنت أطالب به لانه المرقاة التي ترقى به الامة الى الاستقلال الصحيح ، والحرية الكامة ولانه يقرر سلطة الامة ، ويحميها من استبداد الفرد ، ويضمن الفصل بين من السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية والسلطة القضائية .

« والاستقلال بغير الدستور ، وبغبر الحياة النيابية ناقص . ولا كرامة ولا حرية لشعب لا دستور له ، ومهما قيل فى عيوب الحكومات النيابية ، فهى خير وأصلح من أى نوع من الحكومات الاخرى . وأذكر ان العلامة « سبنسر » عرضت عليه يوما أعمال البرلمان الانجليزى والحكومات البرلمانية الانجليزية ، فبعد أن راجعها قال : (مهما قيل عن عيوب الحكومة البرلمانية ، ومهما اتهمت به من مختلف التهم ، فانها الحكومة الخليقة ببنى آدم) .

« أما مطالبتى بحرية التعليم ، فقد تحققت بوجود التعليم الجامعى ، فان هذا التعليم ينشر الحرية الفكرية ، ويصوغ الامم على ما تهوى من الحياة الحرة الكريمة ، لا على ما تهوى الحكومات والديكتاتوريات المستبدة . . وكذلك ما كنت أطالب به من التهذيب الخلقى والكرامة الخلقية ، فانى أرى ذلك يتحقق فى ظل الحرية . وقد أصبحت أخلاق المصريين فى الجيل الحاضر خيرا منها فى الجيل الماضى ، وينبغى الا نقيس فى هذا الصدد أخلاق الجيل الحاضر على الكمال لنعرف الى أى درجة نحن ، بل الواجب علينا أن نوازن بين حالنا الحاضرة وحالنا الماضية . وحسبنا رجاء أن نكون اليوم أقوم أخلاقا منا بالامس .

« كان المشاهد أيام الاستبداد ان دائرة الحياة ودائرة

الخوف غير محدودتين ، فجاء الجيل الحالى يؤدى بفضيلته أن الذى يستحى من الله ومن نفسه ومن الناس لا يستطيع أن يكذب .. وقد كان الكذب فى الزمن الماضى أشمل منه الآن ، لانه كان الوسيلة الوحيدة للخلاص من وجه الحاكم الظالم الذى يجلد الناس ضربا بالسياط فى غير حد ، ومن غير قانون مكتوب ولا جريمة معروفة .

« على أن الاخلاق التى ينبغى أن تكون محلاً للنظر ، ومقياسا لتقدم الامة أو تأخرها هى الفضائل الاجتماعية، وجماعها يتخلص فى شيئين :

١ ـ حب الحرية . وهو متقدم عندنا عن حالنا فى الماضى ، ومن مظاهره ما يشتكى منه الآن استعجالا ٢ ـ وحب العدل ، وقد بدت مظاهره فينا فى مواطن عديدة .. وبالجملة كل ما من شأنه تقوية الروابط بين أفراد الامة الواحدة ، فهو فضيلة اجتماعية . ولا شك ان تلك الفضائل ان لم تكن معدومة فى الزمن الماضى ، فقد كانت كوميض ضئيل تحجب غيوم الظلم الكثيفة » .

وانتقل بنا الحديث فى ذلك الحين ـ اى فى يناير سنة ١٩٥٠ ـ عن الصحافة ، فسألته :

ـ لو عدت الى الشباب ، فأى الاعمال تختار ؟

فقال : « اختار الصحافة ، لأنى أحبها ، ولانها الاداة التى يمكن أن تحمل ما أريد أن أبلغه للجماهير ، ولانها مرآة الرأى العام ، تظهر عليها صورته ولونه ، وهى مقياس لدرجات الاخلاق فى الامة ، ومعرض لحياتها الذاتية والاجتماعية والثقافية والتقدمية . وترى فيها المبادىء الصالحة التى تحجب فى أدمغة المفكرين ،

والعواطف التي تنطوى فى الصدور . فما أصدق هذه المرآة الصافية فى تحصيل الصورة الصادقة للرأى العام ، وما أبلغها فى توجيه الامة الى الكمالات ، والى ما ينبغى لها من سؤدد ورقى » .

***

كذلك كان حديثى مع أستاذ الجيل منذ اثنى عشر عاما ، ولقد أوحى لى هذا الحديث ان أطالبه بأن يروى لى قصة حياته وكنت أهدف الى غرضين :

الاول — ان حياة لطفى السيد مرحلة مهمة من مراحل التاريخ المصرى الحديث فى الميادين السياسية والاجتماعية والعلمية ، فقد ساهم فى توجيه السياسة المصرية ، والحياة الاجتماعية ، والتربية والتعليم فى مصر توجيها وطنيا وقوميا كان له أثره العظيم فيما وصلت اليه مصر من استقلال تام وحرية كاملة ، وتقدم فى التعليم ، وتحقيق لحرية العلم بانشاء الجامعات .

الثانى — ان قصة حياته تقدم لهذا الجيل الحاضر صورة صادقة عن الحياة السياسية —والاجتماعيةوالعلمية فى الجل الماضى ، وتكشف عن الاحداث الكبرى التى شهدها بنفسه ، وكان له فيها مساهمة واضحة . كما تقدم لنا نماذج حية عن الادوار التى قام بها زملاؤه فى الجهاد الوطنى والخدمات العامة فى ذلك الحين .

ولقد حرصت أن تبدأ هذه القصة التاريخية النفيسة بنشأة هذا الرجل العظيم فى قريته « برقين » من أعمال مديرية الدقهلية ، وبين أهله وعشيرته . وقد روى فى هذا الكتاب كيف بدات حياته وتعليمه فى هذه القرية ، ثم

انتقل منها الى المدارس النظامية فى سن العاشرة ، وكيف طوى مرحلة التعليم الابتدائى فى مدرسةالمنصورة، ومرحلة التعليم الثانوى فى المدرسة الخديوية ، ثم كيف قضى دراسته فى مدرسة الحقوق حتى حصل على شهادة الليسانس سنة ١٨٩٤ م . وكيف بدأ اشتغاله بالسياسة وهو طالب فى الحقوق . ثم كيف اشتغل بوظيفة « وكيل نيابة » فترة قصيرة من الزمان ، استقال بعدها ، وعمل بالمحاماة فترة أقصر منها زهدته فى هذه المهنة ، وصرفته الى الجهاد السياسى ، وممارسة الصحافة كرئيس لتحرير صحيفة « الجريدة » .. وفى هذه الصحيفة التى عاشت من ٩ مارس سنة ١٩٠٧ الى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩١٤ كان له دور عظيم فى توجيه السياسة الوطنية توجيها جديدا .

فقد كانت سياسة زعماء مصر فى ذلك الحين وفى مقدمتهم مصطفى كامل ترمى الى تدعيم الجامعة العثمانية ، ومحاربة الاحتلال الانجليزى عن طريق التبعية العثمانية . وكان هناك فريق من رجال مصر وكتابها المعروفين يدعون الى جامعة أوسع نطاقا فى ذلك الحين من الجامعة العثمانية ، وهى الجامعة الاسلامية . وكانت مصر فى القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين عثمانية النزعة ، وكان من الدعاة لهذه الفكرة فى مصر وغير مصر : السيد على يوسف صاحب المؤيد،والسيد رشيد رضا صاحب المنار ، وجرجى زيدان صاحب الهلال ، والسيد عبد الله نديم ، وعبد الله فكرى ، وابراهيم المويلحى ، وفارس الشدياق ، والشيخ على أبو النصر ، وعبد الحميد الرافعى ، وعبد الرحمن

الكواكبي وأديب اسحاق . وكان زعيم هذه الدعوة السيد جمال الدين الافغاني الذى قال عنه جرجى زيدان فى كتاب « مشاهير الشرق » :

« ان الغرض الذى كان يصوب نحوه أعماله ، والمحور الذى كانت تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام ، وجمع شتات المسلمين فى صورة دولة اسلامية فى ظل الخلافة العظمى » .

كانت سياسة زعماء مصر فى ذلك الزمان تتجه هذا الاتجاه ، وكان البعض منهم يعتمد فى محاربة الاحتلال البريطانى على بعض الدول المنافسة لبريطانيا فى الاستعمار كفرنسا ، فلما تولى أحمد لطفى السيد صحيفة « الجريدة » فكر فى هذه الاوضاع التى قامت عليها السياسة المصرية ، وخرج من هذا التفكير بسياسة جديدة هى « سياسة مصر للمصريين وأعلن فى أول مقال دبجه فى صفحتها الاولى ان هذه « الجريدة » صحيفة مصرية تدافع عن مصالح المصريين ، فقال :

« ما الجريدة إلا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها ارشاد الامة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الاخذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والامة بتبيين ما هو خير لها وأولى ، تنقد أعمال الفرد وأعمال الحكومة بحرية تامة . أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والافراد فى أشخاصهم أو أعمالهم التى لا مساس لها بجسم الكل الذى لا ينقسم وهو الامة » .

***

وقد كان أحمد لطفى السيد أول المنادين باستقلال مصر

التام بعيدا عن أية دولة أخرى وان كان الزعيم مصطفى كامل قد جاهد لاستقلال مصر التام غير أن نزعته المصرية خصوصا فى أوائل جهاده كانت تسير الى جانب نزعته العثمانية . وقد تابع لطفى السيد دعوته فى هذه السبيل حتى كان لها أثرها فى سياستنا الوطنيـــة . وفى ذلك يقول :

« ان علينـــا نحن المصريين أن نترك فرنسا وانجلترا والدولة العلية ، ولا نعير سياسة الخلاف ولا سياسة الوفاق أية أهمية . وعلينا أن نعتمد على أنفسنا فقط فى الحصول على حقنا فى الدستور وحقنا فى الحرية .

« ولابد لنا من ذلك ومن عزة تربأ بنا أن نطلب من غيرنا أن يأتى ليحرر نفوسنا من الرق ، وقلوبنا من عبادة القوى كأننا نبتغى أن يأتينا الاستقلال ونحن نيام » .

ثم يتناول فى مقالاته فى الجريدة عقيدة الاستقلال : وأسسها القومية الوطنية فيقول :

« ان أول معنى للقومية المصرية هو تحديد القــومية الوطنية — نريد الوطن المصرى — والاحتفاظ بها والغيرة عليها غيرة التركى على وطنه ، والانجليزى على قوميته — لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع وسط ما يسمى بالجامعة الاسلامية . تلك الجامعة التى يوسع بعضهم معناها فيدخل فيها ان مصر وطن لكل مسلم .

« أما اذا كان معنى الجامعة الاسلامية مقصورا على وجوب ائتلاف بين أمة وجارتها على المعاونة المتبادلة وعلى

الارتقاء ، فذلك حسن مفهوم . بشرط أن يكون العقد متبادل المنفعة لا مقصورا على أحد الطرفين دون الآخر » .

ثم يقول :

« ويجب ألا نقع فى حبائل ذلك الوهم القديم الذى كان يراود أدمغتنا الوقت بعد الوقت اذ كان يزين لنا مرة ان فرنسا ستحرر بلادنا ، ومرة ان الدولة العلية ستقوى . وبحقنا عليها تسفك دماء ابطالهــا لتخرج الانجليز من بلادنا . ثم هى بعد ذلك تتركنا لانفسنا أحرارا نتصرف كما نشاء .. ان من الواجب أن نبعد بالامة عن هذه الخيالات الكاذبة ، ونوجههــا الى أن تنمى فى نفسها عقيدة الاستقلال » !!

كانت دعوة لطفى السيد فى ذلك الحين ، ترمى الى تحقيق الشخصية المصرية والاستقلال المصرى ، والمنفعة المصرية الخالصة بعيدا عن أى نفوذ غير مصرى . وقد جاهد طول حياته السياسية فى هذه السبيل ، كما جاهد فى سبيل الحرية والكرامة الوطنية . وكان فى الصف الاول من الزعماء الذين سعوا بقلمهم وعملهم للوصول الى حقوق مصر فى الحرية والاستقلال التام . وكان من أول العاملين لتأليف الوفد المصرى فى سنة ١٩١٤ م ثم فى سنة ١٩١٨ م وكان من أبرز أعضاء هذين الوفدين ، كما ترى فى صفحات هذا الكتاب . وكانت الحرية فى جهاده هى أعظم الاهــداف التى يجب أن يسعى لها الانســان لتحقيق انسانيته . وهى بلا شــك الفــداء الضرورى لحياتنا ، ولو كنا نعيش بالخبز والماء لكانت عيشتنا راضية

وفوق الرضى ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون ، بل هو شبع العقول والنفوس والافكار . ولا ريب أن عقولنا ونفوسنا وأفكارنا لا تشبع ولا ترضى الا بالحرية التى تحققت مع الاستقلال والعزة والكرامة فى عهدنا الجديد .

طاهر الطناحى

الفصل الأول :

نشأتي الأولى

في قرية مصرية

نشأت فى أسرة مصرية صميمة لا تعرف لها الا الوطن المصرى ، ولا تعتز الا بالمصرية ، ولا تنتمى الا الى مصر .. ذلك البلد الطيب الذى نشأ التمدن فيه منذ أقدم العصور .. وله من الثروة الطبيعية والشرف القديم ما يكفل له الرقى والمجد .

وقد ولدت فى ١٥ يناير سنة ١٨٧٢ م بقرية «برقين» من أعمال مركز السنبلاوين بمديرية الدقهلية . وهى قرية صغيرة كان تعدادها فى ذلك الحين يبلغ مائة نفس . ويشاع بين أهل الريف أن أسمها « النزلة » وربما سميت باسم « برقين » الفلسطينية . وقد تضاعف سكانها ، فأصبح عددهم الآن نحو ألفى نفس . وهم زراع ماهرون ، مشهورون بالجد والنشاط والاستقامة ، وقد اعتادوا أن ينطقوا القاف « جافا » ، والجيم جيما معطشة كسائر أهالى مركز السنبلاوين ، وما زالت هذه اللهجة تغلب على فى حديثى .

وكان والدى « السيد باشا أبو على » عمدة هذه

القرية ، كوالده « على أبو سيد أحمد » . وقد كان يجيد حفظ القرآن الكريم كله . وعرف بشخصيته المهيبة ، وقوة شكيمته ، وعدالته في معاملته ، وعطفه على أهل قريته وغيرهم . وأذكر أنه ما قسا يوما على ، ولا وجه الى كلمة نابية أو عبارة تؤلم نفسى ، بل كان — طيب الله ثراه — عطوفا حكيما فى تربية أبنـائه ، يعنى بالقدوة الحسـنة ، وحسن التوجيه والارشاد .

ولما بلغت الرابعة من عمرى ، أدخلنى كتاب القرية ، وكانت صـاحبته سيدة تدعى « الشيخة فاطمـة » . فمكثت فيه ست سنوات تعلمت فيها القراءة والكتابة ، وحفظت القرآن كله . وكنت أجلس مع زملائى على الحصير ، ونصنع الحبر بأيدينا . والى هذه السـيدة يرجع فضل تنشئتى الاولى فى تلك السنين .

ضرب العمد .. والأعيان !

وقد كنت فى العاشرة حينما أتممت حفظ القرآن في هذا الكتاب ، فاشترى لى والدى « مهرة » من بادية الشام لم تألف رؤية قطار السكة الحديدية . فكنت أركبها للنزهة ولقضـاء بعض الاعمـال . وقد نصحنى والدى بالابتعاد عن السكة الحديدية حتى لا يمسسنى مكروه . وذات يوم امتطيت المهرة وذهبت الى عزبة لنا فى « طرانيس العرب » . وفاتنى أن أعمل بنصيحة والدى ، فسرت بها على طريق السكة الحديدية .. وبينما أنا سائر بها ، اذ فاجأني القطار فوثبت من فوقها وتركتها وحدها فجـرت مسرعة حتى عادت الى برقين . فذعر أهلى ، وهاجت القـرية ، وظن الجميع انى أصبت

بمكروه. وكنت وقتئذ وحيد والدى ، فزاد ذلك من اهتمامهم وقلقهم . وما كاد القطار يقترب منهم حتى رأوا السائق يشير اليهم بمنديل أبيض ، فاطمأن بالهم ، ثم أخبرهم السائق بما فعلت ، فبعثوا الى بحمار عدت عليه الى بلدتى . غير أنى خشيت أن يعاقبنى والدى ، فهربت خوفا من « علقة » تصيبنى . وجاء رجل من أهل القرية يدعى « عوض بدران » يهنئه بسلامتى ويقول له : « بركة عيشـك يا بو على » . وهو يعنى « الحمـد لله على السلامة » !

وجىء بى الى والدى وأنا خائف أترقب ، ولكنه — كعادته معى رحمه الله — ربت على كتفى قائلا : « لا تخالف أمرى يا ولدى ، ولا تسر مرة أخرى على السكة الحديد » . فأثر ذلك فى نفسى ، وازددت اعجابا به وحبا له .

وعلى ذكر « العلقة » ، أذكر أن الضرب فى ذلك الزمان كان مباحا ، حتى ضرب العمد والاعيان ! وكان هذا بعض ما يحـدث فى القرى المصرية من القسوة والاستبداد .. وقـد رأيت بنفسى غير مرة ، اذ كان لوالدى صديق يدعى أحمـد كامل بك ، وكان مفتش « تفتيش شاوى » . فكنت — وأنا بمدرسة المنصورة — أذهب الى بيته يوم الجمعة ، فأرى حوش التفتيش مرشوشا ، والبيك المفتش قاعدا فى صدره وقد وقف اثنان من « القواسة » يحملان الكرباج و « الفلقة » لضرب العمد الذين يتأخر أهالى قرآهم فى دفع الايجار . وكانت هذه طريقتهم فى ذلك الحين .. فأنظر كيف كانت الحال بالامس ، وكيف هى اليوم ؟

نوبار باشا : مسلم !

بعد أن أتممت حفظ القرآن الكريم ، رغب والدى فى أن يبعثنى للدراسة فى الازهر ، وصادف فى ذلك الوقت أن جاء يتغدى عندنا ابراهيم باشا ادهم – مدير الدقهلية سابقا – فدخلت لتحيته ، فسأل والدى الى أين يبعث بى للدراسة ، فأجاب : « الى الازهر الشريف ان شاء الله » .. فأشار عليه أن يبعث بى الى مدرسة المنصورة الابتدائية ، وكانت المدرسة الحكومية الوحيدة فى الدقهلية كلها . وقد عين المرحوم أمين سامى باشا ناظرا لها . وكان معروفا بالدقة والنظام والشدة وعدم التسامح فى أى تقصير يبدو من أحد التلاميذ ، ومع ذلك فقد كنا نحبه ونحترمه ونشعر بأبوته الرحيمة .. وكان بالمدرسة قسم داخلى ، فالتحقت بالسنة الثانية بامتحان ، لانى كنت عدا حفظى للقرآن الكريم – اعرف قواعد الحساب الاربعة ، و « سورة الفدان » من صراف بلدنا « المعلم حنين » وكان يلبس جبة وقفطانا .

وأذكر على سبيل الفكاهة أن أحدهم سأله يوما عن رئيس الوزارة نوبار باشا ، فقال له : « قول لى يا معلم حنين .. نوبار باشا مسلم ؟ » .

فأجابه خبثا أو بسلامة نية : « نعم .. مسلم وموحد بالله » !!

العدس والفول .. فقط *

وكانت سنة ١٨٨٢ م حينما التحقت بمدرسة المنصورة الابتدائية ، ولما اختلطت بزملائى التلاميذ شعرت بعد

أيام بشيء من القلق ، لانهم كانوا يضحكون منى حينما أنطق القاف جافا كأهل بلدتى ! .. هذا الى أن الضرب والحبس فى « الزنزانة » كانا من أنواع العقاب فى هذه المدرسة ، وقد رأيت فى الايام الاولى تلميذا وضعت رجلاه فى الحديد لانه ارتكب ذنبا . وكانت روح الجندية هى السائدة على نظام المدارس فى ذلك الحين .. وكنا نخرج كل يوم جمعة « طوابير » نطوف فى شوارع المدينة ثم نعود الى عنابرنا .. وكانت عيشة المدرسة عيشة شظف وخشونة . وقد كانوا فى وجبة الفطور يقدمون لكل تلميذ رغيفا فقط ، وعليه أن يشترى من جيبه الخاص ما يأتدم به من جبن أو حلاوة . وكان العدس أو الفول هو وجبة الغداء والعشاء . وفى بعض أيام الاسبوع يقدمون لنا شيئا من اللحم والفاكهة .

وجاء والدى كعادته لزيارتى يوم الجمعة ، فأبديت له أسباب تعبى وضيقى من هذه المدرسة ، وقلت : « اننى غير مبسوط : وأخشى أن أنسى فيها القرآن الكريم فيعاقبنى الله بالنسيان ، وقد قال تعالى (وكذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى) .. » فابتسم رحمه الله وقال : « وانت تنسى القرآن ليه ؟ . اقرأ كل يوم جزءا منه وأنت لا تنساه ، وخليك فى المدرسة » . فاستمعت لنصيحة والدى ، ومكثت بالمدرسة . وقد حبب الى البقاء فيها أستاذ اللغة العربية « سيد أفندى محمد » ، وكان مشهورا بالقدرة والتفوق فى تربيته وتعليمه . وكان تلاميذه أقوى زملائهم فى اللغة العربية ، وعلى يديه نبغ كثيرون .

أمضيت ثلاث سنوات فى مدرسة المنصورة الابتدائية، وأتممت تعليمى الابتدائى فى سنة ١٨٨٥ م . ولم تكن شهادة الابتدائية ولا البكالوريا قد وجدتا بعد ، بل كان الانتقال من مرحلة الى أخرى بالنجـــاح فى امتحان المدرسة . وكان بمدرسة المنصورة فرقة تجهيزية واحدة فألفيت فى ذلك العام ، واضطررت للسفر الى مصر لالتحق بالمدرسة الخديوية .

ولقد أصبت نعمة كبرى فى هذه المدرسة بصحبة صديقى وأخى عبد العزيز فهمى ، من أول يوم التقيت به فى عنبر المدرسة . وذلك فى مناقشة أثيرت بيننا وبين بعض الطلبة فى النحو ، فاتفق رأيه ورأيى ضد الآخرين ، ومن تلك الليلة صرنا صديقين حميمين ، ولا أذكر أن أحدنا قصر فى حق صديقه أو قال عنه ما يسوؤه ، أو وجه اليه كلمة تؤلمه . ولو على سبيل المزاح !

ولما انتظمنا فى المدرسة ، رتبونا بالطول ، فقصار القامة فى السنة الاولى ، والاطول منهم فى السنة الثانية .. وهكذا . وكان وزير المعارف يومئذ عبد الرحمن رشدى باشا ، ووكيلها يعقوب باشا أرتين وناظر المدرسة صادق بك شنن . وكان هذا الناظر معروفا بحبه لاهل البيت ، واذا وبخ أحدا قال له : « يا يزيد ! » وقد عز على صديقى عبد العزيز فهمى باشا وقد أمضى سنة فى تجهيزية مدرسة طنطا — أن يكون تلميذا فى السنة الاولى ، فاحتج على هذا الوضع ، فقبل احتجاجه بصعوبة ونقل

الى السنة الثانية . ولما لم تكن شهادة البكالوريا قد وجدت في ذلك الحين ، فقد شاء عبد العزيز فهمى وهو فى السنة الثالثة أن ينتقل الى مدرسة الحقوق ، فذاكر فى الاجازة لامتحان القبول بها ونجح . أما أنا فبقيت فى الخديوية الى أن حصلت على البكالوريا سنة ١٨٨٩ م وكان نظام الشهادات العامة قد وضع قبل ذلك بعام .

عصر « الفتوات » !

وفي مدرسة الخديوية عرفت عيشة الترف بالنسبة لمدرسة المنصورة ، فكنا نأكل بيضا ولحما وحلوا وفاكهة كل يوم . ولم تكن نفقاتها تزيد على نفقات مدرسة المنصورة . وكانت فى سراى مصطفى باشا بدرب الجماميز ، وهى ومدرسة الترجمة والمهندسخانة ووزارة المعارف . وكان طلبة المهندسخانة يختلفون عنا بزيهم العسكرى الكامل ، ويحملون الى جانبهم سيوفا ، فكانوا يشيعون بمنظرهم الرهبة فى نفوس الطلبة الآخرين وبخاصة الغرباء . وكان مما يخيفنى بالقاهرة حوادث « الفتوات » فى ذلك الزمان . فقد كان فى كل حارة عصابة على رأسها « فتوة » .. وكثيرا ما كانت تحدث معارك دامية بين هذه العصابات .. وقد امتدت عدوى الفتوة الى الطلبة انفسهم حتى ظهر بيننا طالب « فتوة » يدعى « منصور » كان يعلم زملائه « التحطيب » . ولهذا كنت أوثر البقاء فى المدرسة أيام العطلة الاسبوعية . وقد مكثت فى أول عهدى بالقاهرة ثلاثة اشهر لا اخرج من الخديوية ، قرات فيها كتاب « أصل الانسان » لداروين ، الذى ترجمه المرحوم « شبلى شميل » .

وحفظت كثيرا من المعلقات وأشعار بعض كبار الشعراء ، وكان من مدرسى اللغة العربية فى هـذه المدرسة : الشيخ حسين والى ، والشيخ محمد حسنين البولاقى والد المرحوم أحمد حسنين باشا . وكنا وقتئذ نقرأ كتابا مطولا فى النحو لمؤلف يدعى الشيخ محمود العالم .

وكانت مدرسة الخديوية تجرى كل شـــهر اختبارا لتلامذتها ، فرغب تلامذة البكالوريا أن تعفيهم المدرسة من الاختبارات الشهرية لينصرفوا الى المذاكرة للامتحان العام ، وأجمع رأيهم على أن يطلبوا الى وزير المعارف على باشا مبارك اعفاءهم منهـا ، واختارونى للـذهاب لمقابلته ، فذهبت اليه ، وكان من عادته أن يضع سبورة فى مكتبه لاختبار كل من يتقدم اليه من الطلبة فى حاجة يريدها ، ولا يجيبه الى حاجته الا اذا أجابه اجابة صحيحة فيما يختبره فيه من المسائل الرياضية أو العلمية . فلما مثلت بين يديه طلب منى أن أقف أمام السبورة لابرهن على النظرية الهندسية التى حاصلها « أن مربع وتر المثلث القائم الزاوية يساوى مجموع مربعى الضلعين الآخرين » . فأثبتها أمامه ، فأجابنى الى الرغبة التى اوفدنى اليه زملائى من أجلها . وقد كان رحمه الله أبا للتلاميذ ، محبا لهم ، عطوفا عليهم . وكثيرا ما كان يختلط بهم فى وقت الفراغ ، ويفسح لهم منزله للزيارة ، وكان منزله فى الحلمية الجديدة بشارع « نور الظلام » مقصدا لاهل العلم وطلابه .

الى مدرسة الحقوق

وقد كنت فى التعليم الثانوى متوسطا ، فلم اكن من

المتقدمين ولا من المتأخرين . على انى كنت متفوقا فى العلوم العربية والرياضيات حتى لفت ذلك صابر باشا صبرى ، وأحمد كمال بك ، فى اللجنة الشفوية لامتحان الرياضة فى البكالوريا ، فنصحانى أن أدخل المهندسخانة، فأجبتهما الى ذلك ، غير انى قرأت فى الاجازة أن المهندسخانة تقبل ساقطى البكالوريا فلم أجد من كرامتى أن ألتحق بهذه المدرسة . وتغلب فى نفسى نزق الشباب والعزة الكاذبة على حبى للرياضيات ، فقلت لأبى : « أنا لا أرغب فى المهندسخانة ، ولا أعرف أية مدرسة توافقنى ، وأجدنى فى حيرة من ذلك » .. فقال والدى: «علينا بالقرعة» . فأجريناها فخرجت مرتين على مدرسة الحقوق !

التحقت بمدرسة الحقوق سنة ١٨٨٩ م . وكانت المدرسة وقتذاك يمكن أن تسمى « كلية الحقوق » و « كلية الآداب » معا .. فقد كان الطلبة يدرسون فيها الى جانب العلوم القانونية علوما أدبية كآداب اللغة العربية ، وقواعد النحو والصرف والبيان والمعانى والبديع والعروض والقوافى ، وتفسير القرآن الكريم ، وآداب البحث والمناظرة ، والمنطق . وكانت مدة الدراسة بها خمس سنوات . وكان وكيلها عمر لطفى بك ، وكان يدرس لنا قانون العقوبات ومن أساتذتها مسيو تستو مدرس القانون المدنى والاستاذ شارل ولوزينا والشيخ حسونة النواوى الذى تولى بعد ذلك مشيخة الازهر ، وحفنى ناصف بك وسلطان بك محمد . وكنت فى ذلك الحين اسكن حارة (عمر شاه) التى يسكن بها الشيخ حسونة النواوى ، وكنت اتردد على منزله ، وكثيرا

ما يبعث الى لأقرأ له درس الفقه الذى كان يلقيه فى الازهر فى بكرة الغد .

وفى مدرسة الحقـوق عرفنى الشيخ محمد عبـده والشيخ حسن الطويل ، وكانا مع الشيخ عبد الكريم سليمان فى لجنة امتحان العلوم العربية ، وأذكر انه فى لجنة امتحان السنة الثالثة طلب منا أن نكتب فى موضوع « حق الحكومة فى معاقبة الجانى » ، فتناولت الموضوع من جميع نواحيه ، فكتبت المذاهب الاربعة التى أنشأها علماء الجنايات فى شروحهم على قانون العقوبات ، ثم نقضت كل مذهب منها ، وخلصت فى النهاية الى أن الحكومة ليس لها حق معاقبة الجانى ، لان كل حكومة نشأت بالقوة ، والقوة لا تعطى الحق وانما الذى يعطيه هو العقد فقط ، وليس هناك اى عقد بين أية حكومة وبين أمتها !

ولما خرجنا من الامتحان ، وذكرت ذلك لزميلى محمود عبد الغفار ، أسف جدا لما فعلت ، وقال لى : « يا لطفى أنا مش عارف فلسفتك دى حاتودينى فين ! » .

وقد ألقى في روعى انى أخطأت فى هذا العمل ، ووثقت انى سآخذ « صفرا » على هذا الجواب ، ولكن حينما دخلت الامتحان الشفهى وجلست أمام اللجنة قال لى الشيخ محمد عبده : « انى أهنئك بما كتبت وقد أعطيناك أعلى درجة ، لا على ثورتك على الحكومات ، ولكن على الانشاء ! » .

وأظن أن هذه الكلمة هى التى شجعتنى على أن انشىء فيما بعد « مجلة التشريع » بالاشتراك مع المغفور لهم

اسماعيل صدقى (باشا) ، واسماعيل الحكيم (بك) ، وعبد الهادى الجندى (بك) ، وعبد الخـالق ثروت (باشا) ومحمود عبد الغفار .

ولقد هويت منذ كنت طالبا فى الحقوق الكتابة فى الصحف ، فعـــاونت فى جريدة « المؤيد » ، بترجمة تلغرافاتها الخارجية ، عندما كان الاستاذ محمد مسعود بك مريضا .

معركة لغوية !

أذكـر ان المرحـوم الشيخ حمزة فتح الله اللغـوى المعروف استشهد يوما على صرف اسم « عمر » ببيت هو :

الى عمر بن أبى غبقـــة
بيليل يهدى ربحـــلا رجـوفا

فاستنكر ذلك اللغوى الكبير الشيخ محمد الشنقيطى هو وجماعته ومنهم الشيخ البكرى ، وأحمد زكى باشا ، وكتب الشنقيطى مقالا فى جريدة « المقطم » يتحدى فيها الشيخ حمزة فتح الله ، وينفى وجوده فى الشعر العربى، ويقول : « لو دلنى أحد على مكان هذا البيت واسم قائله لأهديت اليه عشر نسخ من لسان العرب » . وكان هذا الكتاب قد طبع حديثا ، فرد عليه الشيخ حسن الطويل .. وكان أستاذا بدار العلوم ، فقـال له ان صحة البيت هكذا :

الى عمـرين الى غبقـــة
فيليل يهدى ربحلا رجوفا

وان قائله صخر الهذلى ، وانه فى صفحة كـذا من

لسان العرب ، وطالب الشنقيطى بالجائزة ، فكتب الشيخ الشنقيطى يقول : « وقف لنا الشيخ حسن الطويل بين السماطين يطالبنا بالجائزة كأنما أعددنا الجائزة لمن يخطىء لا لمن يصيب » ، فكتب الطويل يقول :

« روى البيت خطأ فصححناه ، وزيد الصحيح هو عينه زيد المريض » .

فكتب أحمد زكى باشا ينصر الشيخ الشنقيطى على الشيخ الطويل . وفى ذلك الحين قابلت الشيخ الطويل ومعه سلطان بك محمد ، فسلمت عليهما ، فقال لى الشيخ الطويل : « لماذا لم تنصرنى ؟ » فكتبت رسالة فى « المقطم » نظرت فيها الى النزاع من ناحيته القانونية ، وانتصرت فيها للشيخ الطويل وقلت انه يستحق الجائزة ولكن الشنقيطى أبى أن يدفعها ! ..

فى استانبول

وفى صيف سنة ١٨٩٣ م سافرت الى استانبول ، وكنت ما أزال طالبا بالحقوق ، فالتقيت بزميلى وصديقى المغفور له اسماعيل صدقى (باشا) . وكان الخديو عباس حلمى الثانى يزور وقتئذ العاصمة العثمانية ، فكنا فيها نحن الاثنين كأنما نمثل الطلبة المصريين فى الاحتفال بالخديو .

وذات يوم كنت سائرا مع « اسماعيل صدقى » نتنزه على « كوبرى غلطة » . وكان به شىء من القدم والتهدم ، فأخذ « اسماعيل » يتساءل : أين ميزانية الدولة ، وينتقد بطء التعمير والاصلاح . ويظهر أنه كان يسير

وراءنا ـ دون أن نشعر ـ جاسوس عثمانى ، كما كانت الحال فى ذلك الزمان ، فأبلغ رؤساءه هذا الانتقاد .

وبعد بضعة أيام ركبنا معا حصانين ، وذهبنا للتفرج فى « بيوكدره » ولما عدنا الى المرفأ لنركب « الحميدية » الى استانبول قال لى اسماعيل صدقى : « أرجو أن تنتظرنى حتى أمر بأمين باشا » فانتظرته على ضفة البوسفور حتى عاد من زيارته ، فوجدته ممتقع اللون واجما حزينا ، فسألته عن أمره ، فأجاب : « سأقول لك متى دخلت المركب » . ثم قال لى ونحن فى « الحميدية » : « ان أمين باشا كان فى « المابين » (المعية السنية) فسمع من رجاله ان شابا مصريا اسمه اسماعيل صدقى تكلم ضد الدولة العلية وسياستها » .. وكان جزاء من يثبت عليه ذلك أن ينفى فى بغداد حتى يموت .. ولكن أمين باشا أجابهم :

« ان هذا الشاب الذى تعنونه ليس غير تلميذ صفير فى المدرسة لا يعبأ بكلامه » فقالوا له : اذن ما دام يهمك ، فليسافر فى أول سفينة تقوم من اسنانبول » . فسافر اسماعيل صذقى فى صباح اليوم التالى ، ووصل الى مصر فى ١٢ يوما .

أما انا فبقيت فى استانبول مدة أجازة الصيف أتتلمذ على جمال الدين الافغانى .

الفصل الثانى :

اشتغالى بالسياسة

تتلمذ على جمال الدين !

فى اليوم التالى لسفر اسماعيل صدقى (باشا) ـ وكان ذلك فى صيف سنة ١٨٩٣ ـ مررت بأحد مقاهى الآستانة ، فلقيت فيها بعض المصريين ، وفيهم سعد زغلول بك (باشا) وكان وقتئذ قاضيا بالاستئناف ، والشيخ على يوسف ، وحفنى بك ناصف ، وقد تأهبوا لزيارة السيد جمال الدين الافغانى ، فصحبتهم الى منزله ، وكنت أعرف طرفا من حياته ، ولكنى لم اكن قد اجتمعت به من قبل . وكان قد ذاع صيته فى الشرق الاسلامى كمصلح دينى ، وفيلسوف جليل ، وسياسى خطير ، ونزل مصر سنة ١٨٧١ ، واقام بها حتى أواخر سنة ١٨٧٩ ، وعلى يديه نبغت طائفة من العلماء وكبار الكتاب فى القطر المصرى ، وقد رحل الى الهند وايران والعراق وأوروبا ، ثم أقام فى أواخر حياته بالآستانة ، فنزل ضيفا على السلطان عبد الحميد فى منزل يدعى (المسافرخانة) متوفور العيش ووسائل الاطمئنان ، وقد

قوبل من العلماء ورجال السياسة الاتراك بالحفـــــاوة والاكرام . وكان يخرج عصر كل يوم للرياضة والنزهة فى أطراف المدينة على عربة سلطانية خاصة .

ولما ذهبت اليه مع اخوانى ، ألفيته رجلا مهيب الطلعة قوى الشخصية لا نظير له بين أهل عصره فى علمه وذكائه والمعيته . وكان أبيض اللون ، ربعة ، ممتلىء البنية ، أسود العينين ، نافـذ اللحظ ، خفيف العارضين ، مسترسل الشعر ، جذاب المنظر . يلبس عمامة وجبة وسراويل على زى علماء الآستانة .

واظهر ما رأيته فيه سـعة الاطلاع ، وقـوة الحجة والاقناع ، فكان يستوى فى مجلسه الطـــالب مثلى وأساتذته الحاضرون .

وفي اليوم التالى ذكرت لســعد زغلول رغبتى فى التلمذة على السيد جمال الدين ، وسألته عن السبيل التى أسلكها لأكون تلميذا له ، فأجاب سعد :

ـ اذهب اليه ، واطلب منه ذلك .

فقصدت اليه ، فما كدت أقبل عليه حتى قام لتحيتى كالمعتاد ، فقلت له :

ـ أنا لست زائرا ، ولكنى تلميذ ...

فسر رحمه الله بذلك ، واخذ على عهدا بأن الازمة طول اقامتى بالآستانة .. وقد فعلت ..

اشرب يا ولدى .. اشرب !

وأهم ما أظن انى انتفعت به من السيد جمال الدين فى تلك المدة أنه وسع فى نفسى آفاق التفكير ، وهدانى

الى أن المرء لا يستطيع أن يربى نفسه الا اذا حاسبها آخر كل يوم على ما قدمت من عمل ، وما لفظت من قول ، وما خطر لها من خاطر .

وكان جمال الدين ميالا للسياسة يتحدث عنها كثيرا ، وكأنه يريد أن يقيم فى الشرق دولة تصارع انجلترا فى الغرب .

وكان رحمه الله شديد النقمة على الانجليز لسياستهم فى البلاد الاسلامية ، وهدمهم لدول الاسلام ، ولما وجده من اعتداءاتهم عليه ، واخراجهم له من الهند ، ودسهم له فى مصر حتى أخرج منها فى عهد الخديو توفيق ، وهو الذى كان يتمتع فى عهد الخديو اسماعيل بكرم الضيافة المصرية ، وكان يجرى له راتب شهرى .. وقد روى لى قصة سعيه الحثيث فى ذلك العهد للافراج عن لطيف سليم باشا ومن معه من الحبس حينما قاموا بالثورة العسكرية فى مدة الوزارة المختلطة .

وكان رحمه الله يقدر تلميذه « الشيخ محمد عبده » ، واذا ذكر اسـمه فى مجلسه أعرب عن احترامه له ، وتقديره لذكائه وعلمه . وكان يعيب على المصريين تخاذلهم وتفرقتهم ونزاعهم وسط ما يلم بهم من الحوادث الجسام .. ويردد قوله : « اتفق المصريون على ألا يتفقوا » .

وكان طيب الحديث ، لطيف المعشر ، حلو الفكاهة . وأذكر من حوادث مزاحه الطـريف انه قدم لى يوما سيجارة ، فدخنتها ، فأعطانى الثانية ، فاعتذرت ، فقال لى :

ـ الا ترى أن الانسان منـذ نشأته الى الآن يأكل

ويشرب ، ويلبس ، على خلاف فى الصورة فى العصور المتغيرة ، ولكن الجوهر واحد .. فما الذى جد عليه حتى على نفسه فى القرنين الاخيرين ، فاستكشف البخار والكهرباء .. الخ .. لا اظن أنه جد عليه شىء الا شرب الدخان .. اشرب يا ولدى اشرب .. ! »

جمعية سرية لتحرير مصر !

أتممت الدراسة سنة ١٨٩٤ وحصلت على شهادة ليسانس الحقوق ، فعينت فى صيف ذلك العام أنا وجميع زملائى كتبة فى النيابة بمرتب خمسة جنيهات فى الشهر وكان تعيينى فى هذه الوظيفة لأول مرة بالقاهرة ، ثم نقلت الى الاسكندرية ، فمكثت بها أشهرا ، عينت بعدها سكرتيرا للأفوكاتوا العمومى حسن باشا عاصم . ثم انتدبت معاونا للنيابة ، ببنى سويف . وسرنى ذلك ، لأنى وجدت بها صديقى عبد العزيز فهمى (باشا) وكيل النيابة وقتئذ . وفى سنة ١٨٩٦ عينت وكيلا للنيابة بمرتب عشرة جنيهات . وكان صديقى عبد العزيز ما زال بها ايضا ، فأقمنا معا فى هذه المدينة . وكنا نفكر فى حالة مصر ، وما تعانيه من الاحتلال البريطانى . وفى ذلك العام أنشأنا جمعية سرية غرضها « تحرير مصر » .

وكانت هذه الجمعية مؤلفة من : عبد العزيز فهمى ، وأحمد طاعت رئيس النيابة (أحمد طلعت باشا فيما بعد)، وحامد رضوان وكيل النيابة ، ومحمد بدر الدين وكيل النيابة ، والدكتور عبد الحليم حلمى ، وانا ... ثم ضممنا اليها على بهجت بك ، ومحمد عبد اللطيف الذى كان صيدليا بطنطا .

وذات يوم كنت بالقاهرة بعد تأليف تلك الجمعية ، فالتقيت بمصطفى كامل ، فقال لى : « ان الخديو عباس يعلم كل شيء عن جمعيتكم السرية وأغراضها . وأظن أنه لا تنافى بينها وبين أن تشترك معنا فى تأليف حزب وطنى تحت رياسة الخديو » .

فأجبته : « لا مانع عندى من ذلك » . وأبلغ مصطفى الخديو هذا القبول ، واستأذن لى فى مقابلة سموه . وذهبت اليه ، فتحدث معى سموه عن أغراض الحزب الذى يريد تأليفه ، وطلب منى أن أسافر الى سويسرا لكى أكتسب الجنسية السويسرية ، ثم أعود الى مصر لأحرر جريدة تقاوم الاحتلال البريطانى ، والسبب فى اختيار سويسرا دون أية دولة ، أن التجنس بجنسيتها قريب المنال لا يكلف الراغب فيه الا اقامة سنة واحدة بها .

وكان الخديو عباس يظن وقتئذ ان فرنسا تستطيع أن تؤلب الدول على انجلترا لتجلو عن مصر ، والذى أطمعه فى ذلك زيارة « المسيو ديلونكل » النائب الفرنسى لسموه ووعده له بذلك .

وبعدما عرجت من مقابلة الخديو عباس ، أجتمعت أنا ومصطفى كامل وبعض زملائنا فى منزل محمد فريد ، والفنا الحزب الوطنى كجمعية سرية رئيسها الخديو ، وأعضاؤها : مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعيد الشيمى ياور الخديو ، ومحمد عثمان (والد أمين عثمان باشا) . ولبيب محرم (شقيق عثمان محرم باشا) ، وأنا . .

ومن طرائف ما يذكر عن هذا الحزب ان الخديو كان اسمه بيننا : « الشيخ » ومصطفى كامل « أبو الفداء » . وأنا « أبو مسلم » .. !

اقامتى فى جنيف

سافرت بعد ذلك الى جنيف لاكتسب الجنسية السويسرية حسب الاتفاق ، وكان معى كتابان من على بهجت بك الى المستشرق « ماكس فان برشم » والاستاذ « نافيل » الاثرى المعروف . فلما قابلت الاستاذ «ماكس» سهل لى استخراج جواز الاقامة ، وأدخلنى ندوةالفنانين، وكان مكلفا من الحكومة الفرنسية بجمع الآثار الاسلامية فى مصر والشام ودراستها ، ووضع مؤلف بها ، فأخذت أقضى معه وقتا فى مساعدته على استجلاء معانى النقوش العربية التى جمعها من الآثار . وأما المسيو نافيل الذى كان مشهورا بعلاقاته برجال السياسة فى سويسرا وفى الخارج ، فقد جاءنى فى الفندق وبعد خمسة عشر يوما ، وجرى بينى وبينه حديث طويل انتهى بقوله :

ــ لا تظن أن أوروبا تساعدكم على انجلترا .. وأرى أن لا يحرر مصر الا المصريون .. !

مع الشيخ عبده بجنيف

مكثت فى جنيف سنة ١٨٩٧ أقضى الاشهر الاولى فى الدراسة وحضور بعض المحاضرات بالجامعة ، وأتعلم « الشيش » فى أوقات الفراغ حتى أقبل الصيف ، فجاءنى فيها الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين فلم أخبرهم بمهمتى السياسية وكان قاسم وقتئذ

يؤلف كتابه « تحرير المرأة » ، فقرأ علينا فصولا منه مدة اقامته بيننا . ثم سافر مع سعد زغلول من سويسرا ، وبقي معي الشيخ عبده . وكانت جامعة جنيف أعدت فصلا صيفيا لدراسة الآداب والفلسفة للحائزين على درجة الليسانس فدخلت فيه .. ولما ذكرت ذلك للشيخ محمد عبده أحب أن يحضر دروسه ، فقدمته الى مدير الجامعة باعتباره قاضيا فى الاستئناف وأحد مديرى الازهر ، فقبله بهذا الوصف فمكثنا نتردد على هذه الدراسة .

والد محمد فريد يبكى !

وأذكر أننى والشيخ محمد عبده فى جنيف ذهبنا لزيارة محمد ثابت باشا الذى كان مهردارا للخديو اسماعيل ـ أى حامل أختام الخديو ـ وهو يساوى رئيس الديوان ـ وكان معه أثناء الزيارة أحمد فريد باشا والد محمد فريد ، وكان ناظرا للدائرة السنية ، ومن كبراء مصر المعدودين . فلما استقر بنا المقام أخذ فريد باشا يشكو ابنه الى الشيخ محمد عبده ، ويبكى ، وكان وقتئذ مريضا ، ويقول للشيخ :

ـ هل يصح يا سيدى الاستاذ ان يهزئنى محمد فريد فى آخر الزمن ، ويفتح دكان أفوكاتو (مكتب محام) ؟!

وكان محمد فريد قبل ذلك وكيلا للنيابة ، وحدثت واقعة شركة التلغرافات التى اتهم فيها الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، وقدم الى المحاكمة من أجل نشر هذه التلغرافات فى جريدته . وحضر محمد فريد الجلسة ، فبدرت منه ألفاظ ضد الحكومة عدتها جارحة لها ، فأمرت بنقله الى الصعيد ، فاستقال من وظيفته بعد

استشارة رياض باشا ، وفتح مكتبا للمحاماة بالاشتراك مع محمود أبو النصر ، وأنشأ مجلة « الموسوعات » وكنت أنا أحرر فيها من وقت لآخر ، وأذكر أنني كتبت بها عدة مقالات تحت عنوان « مشخصات الأمة » ناديت فيهـا باصلاح الحروف العربية كي يقرأ القارئون اللغة قراءة صحيحة من غير أن يتعلموا النحو والصرف ...

فلما سمع الشيخ محمد عبده شكوى أحمد فريد باشا لاشتغال ابنة بالمحاماة أخذ يهدىء من نفسه ، ويعرب له انه يخالفه فى رأيه ، ويرى ان الاشتغال بالمحاماة ليس فيه ما يجرح الكرامة وما يخل بالشرف على نحو ما يظن الناس ، وما كان مألوفا فى فهمهم لهذه المهنة فى ذلك الزمان !

الخديو يغضب منى !

كان الخديو عباس لا يميل الى الشيخ محمد عبده ؛ ويظهر أن بعض الناس أبلغ الخديو أنه كان يعايشنى فى جنيف . فلما عاد الى مصر جاءنى مصطفى كامل ، وأفضى الى بأن الخديو مغضب منى لأسباب منهـا اتصالى بالشيـخ عبـده . ثم قال مصطفى : « .. ومع ذلك لم ننجح فى الحصول على موافقة الباب العـالى على تجنسك بالجنسية السويسرية ! » .

رجعت من سويسرا ، ولما وصلت الى الاسكندرية ارسلت تقـريرا الى الخـديو عباس دونت فيه ابحاثى السياسية بجنيف ، وقلت : « ان مصر لا يمكن أن تستقل الا بجهود أبنائها ، وان المصلحة الوطنية تقضى ان يرأس سمو الخديو حركة شاملة للتعليم العام » ..

ثم سافرت من الاسكندرية الى الفيوم عائدا لوظيفتى بالفيوم ، ولم أتصل بالخديو .. وكان صديقى عبد العزيز فهمي قد انتقل منها لوزارة الاوقاف وأنا بأوروبا ، فبقيت في الفيوم مدة انتقلت بعدها وكيلا للنيابة بميت غمر سنة ١٩٠٠ ثم نقلت منها الى الفيوم ثانيا ، ثم الى المنيا . وكانت سنة ١٩٠٥ ، فاستقلت من النيابة لخلاف فى الرأى القانونى بينى وبين النائب العمومى كوربت بك .. ولم تكن الاستقالة الاولى من النيابة ، بل استقلت قبل ذلك مرة أخرى لخلاف قانونى أيضا ، ولكنى لم أنجح فى الاصرار عليها .

فلما وقع هذا الخلاف بينى وبين النائب العمومى ، أصررت على الاستقالة على الرغم من أنه نزل عن رأيه الذى كونه من خطأ وقع فيه وكلاؤه فى تكييف الوقائع ، لأنى ضقت باحتمال جو خانق بالنيابة اذ كنا مكلفين بألا نتصرف فى الجنايات الكبرى الا بعد أخذ رأى النائب العمومى . وقد عزمت على أن أعيش فى بلدى ، وكنت متأثرا وقتئذ بما كنت قرأته من مؤلفات تولستوى . ولكن صديقى عبد العزيز فهمى ـ وكان قد استقال من الاوقاف واشتغل بالمحاماة ـ ألح على فى الاشتغال معه ، فأجبت رغبته واشتغلت بها فترة قصيرة ثم اعتزلتها لأنصرف الى العمل بالسياسة والتحرير فى صحيفة « الجريدة » .

الفصل الثالث :

اشتغالي بالصحافة ورأيي في الخديو عباس

أسلفت أني عدت من سويسرا بعد أن ابلغني مصطفى كامل ان الخديو مغضب مني لاسباب منها اتصالي بالشيخ محمد عبده في جنيف ، وكان سموه لا يميل اليه . وقد قدمت لسموه تقريرا عن أبحاثي السياسية بعد عودتي الى الاسكندرية . ثم سافرت الى وظيفتي بالنيابة . ومكثت بها بضع سنوات حتى كانت سنة ١٩٠٥ فاستقلت منها لخلاف في الرأي القانوني بيني وبين النائب العمومي « كوريت بك » . وعلى الرغم من نزوله عن رأيه ، فقد أصررت على الاستقالة ، لاني ضقت باحتمال جو خانق بالنيابة ، فقد كنا مكلفين فيها بألا نتصرف في الجنايات الكبرى الا بعد أخذ رأي النائب العمومي خلافا لما كان العمل جاريا عليه من قبل ، وعزمت بعد ذلك على أن أعيش في بلدي ، لاني كنت وقتئذ متأثرا بما قرأته من مؤلفات تولستوي ، ولكن صديقي عبد العزيز فهمي وكان قد استقال من الاوقاف واشتغل بالمحاماة ـ ألح علي في الاشتغال معه ، فأجبته الى رغبته ، واشتغلت

بضعة أشهر (١) ثم أعتزلتها لانصرف الى العمل بالسياسة والتحرير بالجريدة .

---

(١) فى مذكرات المرحوم عبد العزيز فهمى « باشا » انه لما اشترك مع صديقه أحمد لطفى السيد فى العمل معا بالمحاماة سنة ١٩٠٦ ، جاءه والده ذات يوم وكان يحبه حبا جما ، وأخبره أنه شارع فى شراء عزبة ، مساحتها اربعمائة وخمسون فدانا ، وانه يريد كتابتها باسم « لطفى » فعند ذلك غضب لطفى ، وقال لابيه :

ـ كلا ٠٠ لا أقبل مطلقا أن تميزنى على اخوى سالم وسعيد ، فان أردت ان يكون العقد لى ولهما ، فذاك ٠٠ والا فلا

فأكبر والده ذلك الشعور ، وأكبرت ذلك الخلق ، وتلك العاطفة النبيلة ، ولم يسع والده الا اجابة طلبه ٠

أما سبب انصرافه عن المحاماة الى العمل بالسياسة والصحافة ، فلذلك قصة ٠٠ تلك ان المرحوم على شعراوى الذى كان يعرف لطفى السيد ومقامه عندما كان رئيسا لنيابة مدينة المنيا ، جاء ذات يوم الى مكتبنا ومعه رجل هرم اسمه « عم عزام » ، وأنبأنا أن بعض الناس زوروا عليه سندا بمبلغ كبير ، وأنه حكم عليه ابتدائيا واستئنافيا بالمبلغ ، ويريد أن يعمل له لطفى السيد التماسا باعادة النظر فى الحكم النهائى ، فدرس لطفى القضية ، ودرستها أنا أيضا معه ٠٠ فلم نجد وجها قانونيا للالتماس ٠ ولان شعراوى باشا يعلم بأن الحكم ظالم ألح هو وعم عزام ليعمل لطفى الالتماس ، فقبل كارها بعد أن أفهمهما أن هذا الالتماس لا وجه له ٠ ولما رفضت المحكمة الالتماس ، حدث أننا كنت أنا ولطفى ذات يوم داخلين المكتب ، فوجدنا عم عزام قاعدا على الباب ، فحين رآنا انتفض قائما ، وقال « بقى الفلوس ودفعتها ٠٠ والقضية وخسرتها ٠٠ واعمل ايه ٠٠ ! » وهو يعنى بالفلوس مبلغ العشرين جنيها التى كان قد دفعها لمكتبنا كمقدم أتعاب ٠٠ ومن أخلاق لطفى السيد أن المال لا قيمة له عنده ، وأنك اذا شئت أن تعكر دمه ، فناقشه فى مسألة مالية ٠٠ فلما سمع لطفى عبارة عم عزام أسرع بالدخول الى المكتب ، وفتح الخزانة ، وأخرج منها العشرين جنيها ، وكلف المرحوم محمد سليمان كاتب المكتب ، أن يعطيها للرجل ، وأن يتلطف معه ، فيقول له : ان نقوده هذه كانت أمانة عندنا ، وقد تبهناه الى أن الالتماس لن ينجح ، فلما ألح حفظنا هذه النقود على ذمته لنردها له ٠

وعند انصرافنا من المكتب قال لى لطفى : « هل هذه هى المحاماة ؟ ٠٠ أنا فى غرفة المحامين أسمع من البعض فحش القول وهجره ٠ وأجد من بعض =

وفى ذلك الحين وجدت مشكلة « العقبة » بين مصر وتركيا . وكان الاتراك يدعون أنها لهم ، والانجليز يقولون انها ملك لمصر ، وكانت الجرائد الوطنية تنصر الاتراك على الانجليز فى هذه المشكلة ، كما كانت الحال فى مسألة « فاشودة » ، فان المصريين كان ضلعهم مع الفرنسيين ضد الانجليز الذين كانوا يطالبون بفاشودة باسم مصر . وهذا المعنى لا يمكن تفسيره الا بأن البلاد ثقل عليها الاحتلال فأصبحت تبغضه وتبغض معه كل ما يأتى به ، ولو كان فيه الخير لمصر .

فكرة انشاء " الجريدة »

وفى هذه الاثناء ، تحدثت فى حالتنا السياسة مع صديقى محمد محمود باشا — وكان وقتئذ سكرتيرا لمستشار نظارة الداخلية .. وكان حديثى يتناول مسألة « العقبة » وما يجب لمصر فى ظروفها السياسية من انشاء جريدة مصرية حرة ، تنطق بلسان مصر وحدها ، دون أن يكون لها ميل خاص الى تركيا أو الى احدى السلطتين الشرعية والفعلية فى البلاد .. وقد رأينا أن تكون هذه الجريدة ملكا لشركة من الاعيان أصحاب المصالح الحقيقية الذين كان يصفهم اللورد كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال ، ساكتون عن حقوق

= القضاء جفاء وغلظة .. وهاهم أولاء أصحاب القضايا يمثلهم عم عزام. فالوسط من أوله الى آخره ، لا يعاش فيه . ولذلك صممت على تطليق المحاماة » !!

ومن ذلك الحين كان أكثر اشتغاله بالسياسة ، وتحرير « الجريدة »

مصر ، وان الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد كالشبان الافنـــدية والباشوات الاتراك !

لهذا الفرض دعوت فى « الكونتننتال » أصدقاءنا : محمد محمود ، وعمر سلطان وأحمد حجازى ، ومحمود عبد الغفار ، وتحدثنا فى الامر . . وقد لاحظنا فى حديثنا وأبحاثنا ان الامل الذى كان المصريون يعقدونه على فرنسا فى المساعدة على زوال الاحتلال قد تبدد وانتهى أمره بالاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا الذى عقد فى ابريل سنة ١٩٠٤ . وكانت السياسة الفرنسية قبل هـــذا الاتفاق ترمى الى مناوأة السياسة الانجليزية فى مصر بعد أن فازت انجلترا دونها باحتلال وادى النيل ، وكانت فرنسا تعانى فى ذلك الحين مصاعب فى مراكش ، وخشيت أن يؤدى فشل ادارتها هناك الى تدخل الـدول وبخاصة انجلترا وأسبانيا .

ولكن أسبانيا كانت مشغولة بمتاعبهـا فى المنطقـة الاسبانية وكانت انجلترا هى الدولة التى يخشى منها . ولهذا أرادت فرنسا أن تحصل على حيادها . وكان الثمن الطبيعى لذلك أن تحصل انجلترا على حياد فرنسا فى شئون مصر ، فعقدت الدولتان هذا الاتفاق . وأهم ما نص عليه :

« أن تعترف الحكومة الانجليزية انها لا ترغب فى تغيير نظام مصر السياسى ، وتعترف الحكومة الفرنسية من جانبها أنها لا تعرقل أعمال انجلترا فى مصر بسؤالها أن تحدد موعد الجلاء أو بأية طريقة أخرى » .

وبعبارة أخرى اعترفت فرنسا بالاحتلال الانجليزى لمصر ، وتركت لانجلترا حرية أكثر مما كان لها فى الشئون المصرية . وكان من نتيجة ذلك ان انهار أمل المصريين في فرنسا ، وتحققوا أنه لا يمكن الاعتماد عليها ، ولا على أية دولة فى المسألة المصرية ، وان على مصر أن تعتمد على نفسها فى المطالبة بالحرية والاستقلال .

تاليف شركة « الجريدة »

تبادلنا الرأى نحن المجتمعين فى هذا الموقف ، ووضعنا الخطة التى نسير عليها ، وعينا المبادىء التى تقوم عليها جريدة حرة مستلقة غير متصلة بسراى الخديو ، ولا بالوكالة البريطانية ، وأخذنا نسعى فى اقناع أصدقائنا ومعارفنا من أعيان البلاد ، وألفنا فى بيت محمود باشا سليمان شركة « الجريدة » ، وانتخبت انا مدير لها ورئيسا لتحريرها لمدة عشر سنوات .

وكان رئيس الشركة محمود باشا سليمان ، ووكيلها حسن باشا عبد الرازق الكبير .

وبعد تأليف هذه الشركة ، أخذت الجرائد المتصلة بالخديو عباس تتهمنا بأننا متصلون بالانجليز ، واننا نمالئهم ضد الخديو . وقد كان لهم عذر فى هذا الاتهام ، لانه كان بين شركائنا فى « الجريدة » عدا الاعيان طائفة من كبار الموظفين المصريين فى الوقت الذى سيطر فيه الانجليز على الحكومة . ومن هؤلاء احمد فتحى زغلول باشا رئيس محكمة مصر ، واحمد عفيفى باشا المستشار بالاستئناف ، وعبد الخالق ثروت باشا عضو لجنة المراقبة وصاحب الاثر الكبير فى وزارة العدل .

ومن الطريف ان كانت هناك جريدة يصدرها وقتئذ حافظ عوض باسم « خيال الظل » فنشرت أبياتا ينسبها بعضهم الى أحمد شوقى جاء فيها :

« ما فى « الجريدة » من نرجيه سوى
« لطفى » فردوه لنـــــا وكلوه ! »

وقد بقيت هذه التهمة عالقة بالجريدة حتى ظهرت بعد ستة أشهر من تأليف الشركاء فى ٩ مارس سنة ١٩٠٧ . وقد افتتحتها بمقال تضمن أغراضها ومبادئهـا ، جاء فيه :

« ما الجريدة الا صحيفة مصرية ، شعارها الاعتدال الصريح ، ومراميها ارشاد الامة المصرية الى أسباب الرقى الصحيح ، والحض على الاخذ بها ، واخلاص النصح للحكومة والامة بتبيين ما هو خير وأولى ، تنقد أعمـال الافراد وأعمال الحكومة بحرية تامة أساسها حسن الظن من غير تعرض للموظفين والافراد فى أشخاصهم وأعمالهم التى لا مساس لهـا بجسم الكل الذى لا ينقسم ، وهو الامة ..

« لا يكون من أهل الوطن الواحد أمة الا اذا ضاقت دائرة الفـروق بين أفرادها واتسعت دائرة المشابهات بينهم ، وان أظهر المشابهات فى حالة الامة السياسية هو التشابه فى الرأى بين الافراد وهذا ما يسمونه بالرأى العام ..

« والناس بطبائعهم أشتات فى الرأى ، كما قيل : « للناس عدد رءوسهم آراء » وهم فى البلاد الحديثة العهد بالرقى ، ينصرف كل منهم غالبا عن التفكير فى الامور العامة الى تدبير حاجتهم الخاصة ، حتى ترشدهم

الصحف كل يوم الى أن لهم فوق وجودهم الخاص وجودا عاما ، وأن بهذا الوجود العام كما لا يجب أن يرقى اليه بعمل الافراد .. » الخ ..

وكان من عادتى أن أكتب افتتاحيات الجريدة . ما كاد يمضى على صدورها غير أيام ، حتى انتهت مهمة اللورد كرومر فى مصر ، فخطب خطبته المشهورة فى «الاوبرا»، وعلقت « الجريدة » عليها تعليقا لا يقل عنفا عن الجرائد المتصلة بالخديو عباس ، وسارت فى طريقتها وعلى مبادئها تنقد أعمال السلطة الفعلية التى كانت للانجليز ، كما تنقد أعمال السلطة الشرعية ـ سلطة الخديو عباس .

وقد يحسن هنا أن أتحدث بايجاز عن هاتين السلطتين ليقف القارىء على حالة مصر ، ومركز كل من الخديو واللورد كرومر فى ذلك الحين .

الخديو عباس

كان الخديو عباس حلمي الثاني قوى الارادة لا يحتمل أن يرى غيره يتصرف فى حقه ، فعندما ولى الخديوية المصرية أظهرت صفات القـــوة الشخصية والشجاعة الادبية والعزة اللائقة بالملوك ، فأنكر على الانجليز تصرفهم فى حقوقه واستئثارهم بالامر دونه ، وعز عليـه أن يصدر كل شيء باسمه على غير ما يختار ، فنفر من معاملتهم اياه معاملة المغفور له والده ، وعارض فى كثير من المسائل بشدة ، فتنبه لذلك الشعور الوطنى ، وقال الناس : « ان هذا الامير سيعيد لنفسه مجد أبيه الاكبر محمد على باشا » .

وقد رأى ان وزارة مصطفى فهمى باشا هى من أكبر وزارات « الوفاق » أو « الاستسلام » ، فأسقطها ، ونصب وزارة حسين فخرى باشا فى ١٦ يناير سنة ١٨٩٣ ولكن انجلترا أرغت لهذا التصرف وأزبدت وعارضت فى تنصيب الوزارة الجديدة ، وأكرهت « الخديو » على اسقاطها فلم تلبث فى الحكم غير ثلاثة أيام ! ولكن ذلك لم يفل من عزم الامير المطالب بحقه ، فسار فى سياسة الخلاف كلما حانت الفرصة ، حتى انتقد الجيش فى بعض نظمه وكان على رأسه « كتشنر » حينما تفقده الخديو فى الحدود المصرية ، فغضبت الحكومة الانجليزية ،

وطلبت الترضية فوقف سموه موقف المتمسك بحقه من ابداء رأيه فى جيشه ، ولكن الوزارة المصرية الجديدة برياسة مصطفى رياض باشا ، قد اضطرت يومئذ الى اجابة مطالب انجلترا ، فكانت النتيجة أن شكر سموه الجيش ترضية للسردار كتشنر !

وبعد ذلك جاءت سياسة « شبه الوفاق » من سنة ١٨٩٤ ، فأكثر الانجليز من عدد مستشاريهم وموظفيهم فى النظارات ، وأخذت « عابدين » و « قصر الدوبارة » كلتاهما تحمى من يلجأ اليهمـا من الموظفين من الجهة الاخرى ، وترتب على حادثة الحدود وما سبقها نتيجة مساوية للنتيجة التى ترتبت على رضا الخديو السابق توفيق باشا بالغاء قرار مجلس النظار القاضى بالاستغناء عن خدمات « مستر سكوت » . ثم أعقب ذلك امضاء اتفاقية السودان التى جعلت ادارته شركة بين الحكومة المصرية والحكومة الانجليزية . ولكن المصريين فطنوا ازاء تلك الحوادث ، الى أنه يستحيل عليهم أن يتقدموا فى سبيل المدنية خطوة الى الامام الا بمشاركة الامة للحكومة فى الاعمال العامة ، فأخذ كتابنا وكبراؤنا يشـعرون بضرورة طلب الدسـتور عن طريق التدريج ، فحنق الانجليز — رغم اشادتهم بالحرية — من هذه المطالب ، ولم يقتصروا على مناوأتهم للأمير الذى لا يريد أن يكون الاتفاق معهم سببا فى انتقاص سلطته الشخصية ، بل نالوا من الامة أيضا بالتشهير ، فلما ان جاءت حادثة « العقبة » رأى الانجليز ان المصريين يتبرمون بهم ، فأرادوا أن يعطوهم درسا أليما بأحكام حادثة دنشواى سنة ١٩٠٦ ، ظنا منهم أن تلك السياسة — سياسة القسر —

تصرف المصريين عن آمالهم فى الدستور ، وتقطع السنة الخاطبين ، وتكسر أقلام الكاتبين لترشيح الامة للدستور ، ولكن النتيجة جاءت على العكس مما قدروا فان هذه الحادثة جعلت مصر تزيد اقتناعا بأن حياتها موقوفة على نيل الدستور بقدر ما يسمح به مركزها السياسى ، فازدادوا طلبا له وتشبثا به فقلل الانجليز من حدتهم ، وألانوا من جانبهم ، وجنحوا الى استرضاء الخديو عباس بسياسة الوفاق .

وفى أثناء تلك الحرب السجال بين السلطة الشرعية ، والسلطة الفعلية ، أو بين الخديو واللورد كرومر واختلافهما على أيهما يكون له الاثر الفعلى فى الامةالمصرية قامت « الامة » بين السلطتين تثبت شخصيتها غير المعترف بها من الفريقين ، وتؤدى فى سياسة البلاد واجبها حتى لا تكون متاعا لكل غالب ، ملتزمة فى ذلك طريق الحكمة والسلام .

الفصل الرابع :

لورد كرومر
أمام التاريخ

أعمال اللورد كرومر

في أوائل سنة ١٩٠٧ استقال اللورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر . وذلك بعد أن أمضى على حادثة دنشواى الشهيرة نحو عام .. تلك الحادثة التي أبرزت سياسته الاستبدادية للعالم بصورة بشعة ، وأوضحت أعماله الاستعمارية لمصلحة قومه وبلاده بحالة لا تتفق مع مكانة دولة متمدنة . ومع ذلك فان هذه الاستقالة عزيت الى سبب آخر هو ضعف صحته . ومهما يكن هذا السبب ، فانه لو كان قد بقي لورد كرومر عاما واحدا في منصبه لعبد عيده الذهبي في خدمة دولته ، لانه صرف حتى يوم استقالته تسعة وأربعين عاما في خدمة المصلحة البريطانية . ولقد أصدرت صحيفة « الجريدة » في ذلك الحين ملحقا ذكرت فيه لمعة من ترجمته ، ثم فصلت أعمال ذلك السياسي بما له وما عليه ، فقلت :

تنقسم أعمال اللورد في مصر الى قسمين : أعمال مالية واقتصادية وأعمال سياسية :

أما أعماله المالية الاقتصادية فيبتدىء تاريخها فى مصر سنة ١٨٧٧ اذ عين عضوا انجليزيا فى صندوق الدين المصرى ، فأظهر لدولته من صدق النظر وسعة الاطلاع فى المسائل المالية ما أنساها القاعدة القائلة ان الذى يربى بين البنادق والمدافع كالشاب « أفلن بارنج » لا يميل به طبعه الى المالية أو السياسية .

وفى سنة ١٨٧٩ اتفقت الحكومتان البريطانية والخديوية على تعيينه مراقبـــا عاما للمالية المصرية ، لان انجلترا كانت تهتم مع فرنسا أشد اهتمام بالمالية المصرية صونا لاموال الانجليز والفرنسيين ، فأظهر براعة كبيرة . وكان فى جملة الذين مهدوا السبيل لاصدار قانون التصفية(١) الذى ضمن للدائنين الاوربيين أموالهم مع فائدتها . وقبل أن يصدر ذلك القانون حدث أن مالية الهنـــد ارتبكت ارتباكا شديدا فعينته حكومته عضوا ماليا فى المجلس الهندى ، وهناك لم يفعل الا ما زاد حكومته ثقة به .

ولما تقرر أن يغادر السير ادوارد مالت معتمد انجلترا فى القطر المصرى ، لم تجد الحكومة البريطانية رجلا أخلق بمنصبه من لورد كرومر (وكان لا يزال اسمه السير افلن بارنج) . ولما اجتمع مؤتمر لندرة سنة ١٨٨٤ للنظر فى المالية المصرية كان فيه مندوبا محترم الرأى . وكان يقول مثل كل عاقل انه لا يمكن الاصلاح فى مصر قبل أن تقوم المالية فيها على أساس متين . ولا تقوم المالية على ذلك الاساس الا اذا زادت مواردها ووثقت بها أوروبا . ولا تزيد مواردها الا اذا تحسنت أحـــوال الرى على

---

(١) فى ابريل سنة ١٨٧٩ ألفت لجنة للتصفية ـ أى تصفية الديون المصرية لاوربا ـ وصدر قانون التصفية فى ١٧ يوليو سنة ١٨٧٩

الاخص ، فأصبحت أرض مصر تنبت من الخيرات كل ما تقدر على انباته . وأما المواد الاخرى كالجمارك والسكك الحديدية والبوستة ، وسائر مصادر الدخل فانها تأتى فى المقام الثانى . ولذلك أفرغ كل جهده لدى الدول حتى حملها على عد قرض خص جزءا منه للرى .

وما أن جاءت سنة ١٨٩٩ حتى صار دخل الحكومة (١١٫٤١٥٫٠٠٠ جنيه) وكان كلما زاد التحسن فى المالية ، زاد فى المساعدة على تخفيف الضرائب ، غير أن النفقات كانت طائلة بسبب فوائد الديون ونفقات المشروعات .

وكان لدى لورد كرومر مشروعان يؤلمانه ويشكو منهما. أولهما : صندوق الدين . والثانى :وهومتعلق بتخصيص ما قيده قانون التصفية بالديوان كالدائرةالسنيةوالدومين ونحو نصف دخل السكك الحديدية ، فلم يجد وسيلة للخلاص من هذين المشروعين سوى الاتفاق مع فرنسا أولا . وحدث ان الملك ادوارد مال الى هذا الاتفاق ، وحببه الى حكومته ، فاغتنم كرومر الفرصة ، وأيده بما استطاع .. كما ذكر أخيرا فى حديثه مع مراسلى الطان .

أما السبب الذى حمل لورد كرومر على الشكوى من صندوق الدين مرارا فى تقاريره ، فهو ان الصندوق لم يكن يقدم كل ما تطلبه الحكومة المصرية من الاموال اللازمة للاصلاح . وقيل ان لورد كرومر لما أذن بتأسيس البنك الاهلى ، وأيده تأييدا معروفا كان يأمل أن يقوم يوما مقام صندوق الدين .. وها نحن أولاء نرى هذا الامل يوشك أن يتحقق ..

ولما تم الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ (١) بين فرنسا وانجلترا كان أول ما فكر فيه اللورد كرومر حل عرى صندوق الدين ، فرضيت فرنسا بالشروط التى عرضها عليها . ثم وافقت الدول الاخرى التى لها أعضاء فى ذلك الصندوق .

ولقد بات لورد كرومر فى راحة عظيمة من الوجهة المالية بفضل ذلك الاتفاق ، فلم يعد يرى فرنسا تعاكسه كما عاكست فى مسألة تحويل الدين ، ولا تشاكسه كما فعلت مع روسيا حين أخذت نصف مليون جنيه من صندوق الدين لحملة السودان ، اضطر الى رده بحكم من المحكمة المختلطة . ولا يشك أحد فى أن لورد كرومر فاز فوزا ماليا عظيما بادخال ما أراده من المواد المتعلقة بالمالية المصرية فى ذلك الاتفاق . كما فاز مع حكومته فوزا سياسية يحمل فرنسا على التعهد لهم فيه : « بأنها لا تقيم أقل عقيدة فى سبيل انجلترا بمصر سواء كان بطلب تعيين موعد للجلاء أو غيره » .

كان من سياسته المالية أيضا ، ان يرفع أثقال الربا الفاحش عن عواتق الفلاحين .. فأنشأ البنك الزراعى بعد انشاء البنك الاهلى ونصح للحكومة المصرية وللبنك الاهلى بأن يساعداه حتى يقدم للفلاحين مبالغ صغيرة تسهل عليهم سبيل المعاش ، فأنشىء هذا البنك ، وجعل من مواد قانونه أن يسلف الفلاحين من عشرة جنيهات الى ٥٠٠ جنيه بفائدة ٩ فى المائة . غير ان بعضهم ينتقد البنك المذكور فى بعض أمور ليس هنا محل ايرادها .

---

(١) اتفاق عقد بين فرنسا وانجلترا بأن تطلق كل منهما يد صاحبتها ، تلك فى شمال افريقية ، وهذه فى مصر

وليس فى وسع احد أن ينكر النتيجة التى وصلت اليها مصر بفضل تلك السياسة المالية . واذا كان بعضهم ينتقد تفاصيل معينة فى بعض المصروفات ، فان كل عاقل ينظر نظرة شاملة صادقة الى تلك السياسة ، يحكم بأن لورد كرومر من خيرة الاقتصاديين واكابر الماليين . فكم زادت مساحة الارض المزروعة منذ سنة ١٨٨٣ الى اليوم ، وكم زادت قيمة الارض الزراعية وأرض البناء بفضل سياسته فليس بعجيب أن تعظم ثقة الاوربيين باللورد حتى صاروا يعدون كلمته حجة . اما خلاصة آرائه فى الحالة الحاضرة ، فهى ان هذا النجـــــاح الاقتصادى قائم على قواعد راسخة ، غير أنه يجدر بالمصريين وغيرهم الا يتهوروا فى الاقبال على احـدى الشركات قبل أن يدققوا ويفحصوا ، ويستشيروا حتى يعلموا اذا كانت ثابتة القواعد قوية الاركان ..

أعمال السياسية

لا ينكر أحد على لورد كرومر أنه سياسى محنك بعيد النظر رحب الصدر ، طويل الاناة كما يجب على كل سياسى .. غير ان سياسته لا تخلو من أثر العسكرية التى صرف فيها شبابه . تريد انه شديد المراس فى مطلبه ، عظيم الاصرار على أمره . يبقى سنوات عديدة يسعى الى غاية واحدة ، ويتخذ من كل سانحة حجة وبرهانا لتأييد رأيه ولا يدلنا على هذا كل مثل الحوادث التى جرت منذ ١٨٨٤ الى اليوم ، ولو اتخذنا من تلك الحوادث مسألة الجلاء فقط مثلا ، لكانت برهانا كافيا على خطته . فانظر كيف انه كان يجاهد جهادا متواصلا حتى يستنبط فى كل زمن وسيلة جديدة لارساخ قدم دولته فى وادى

النيل ، فسير حملة السودان وكان فى كل ساعة يستنجد الدماء الانجليزية التى أريقت فى أم درمان على كل انجليزى أن يلفظ كلمة الجلاء .. حتى استمال الى رأيه كبار الاحرار والمحافظين ، فأيده لورد روزبرى ، كما أيده لورد سالبرى ، واستمال اليه لورد لانسدون ، كما استمال سير ادوارد جراى ، وبات الاسطول البريطانى حارسا لما قرره فى المسألة المصرية . فما رأينا حكومته ترد له طلبا ، أو تستنكر عليه سياسة ، ولو بلغت أقصى درجات الشره . واننا نورد للقارىء هنا مثلاً واحدا لتلك الثقة العظمى بسياسته :

لما وقع الخلاف بينه وبين الخديو عباس على تعيين حسين فخرى باشا خلفا لمصطفى فهمى باشا سنة ١٨٩٣، ذهب لورد كرومر الى عابدين ، واعترض اعتراضا شديدا على تعيين فخرى باشا ، وأظهر للخديو ان اصراره على رأيه يجعل الامر خطرا ، وأبرز له تلغرافا من اللورد روزبرى ناظر الخارجية يؤيد قوله (١) .

فان معتمدا سياسيا يجد من حكومته مثل هذه المساعدة فى هذا الحادث ، يستشعر من نفسه حزما وان يكن بلا حزم ... فكيف برجل عسكرى كاللورد كرومر . واذا أراد المطالع برهانا آخر على تقديس الحكومة الانجليزية لكل رأى من آراء لورد كرومر فى

---

(١) أسقط الخديو عباس وزارة مصطفى باشا فهمى فى يناير سنة ١٨٩٣ ، وعين فخرى باشا رئيسا للوزارة ، وأراد بذلك أن يحقق سلطته الشرعية . فعل ذلك من غير علم كرومر ، فامتنع كرومر عن الاعتراف بالوزارة الجديدة ، قبل أن يعرف رأى حكومته ، وانتهى الامر بأن عدل الخديو عن تعيين فخرى باشا ، وعين رياض باشا رئيس وزارة .

المسائل المصرية ، فليذكر حادثة فاشودة (١) التى كادت تضرم نار الحرب بين انجلترا وفرنسا ، وما تلك الحادثة وطرد كولونيل مرشان ورجاله من الجزء الذى احتله من السودان الا تأييدا لسياسة كرومر ، وما الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وانجلترا بعد تلك الحادثة على مناطق السودان الا بناء على رأى لورد كرومر أيضا ، تمهيدا لاتفاق أكبر وخطوة أوسع فى سبيل التقرب بعد ذلك التباعد بين الدولتين .

ولما عقد ذاك الاتفاق ، أى اتفاق سنة ١٩٠٤ ، استراح اللورد من المسألة المالية الدولية فى هذا القطر ، كما استراحت دولته من المعارضة السياسية ، ثم التفت الى المسألة الدولية القانونية ، فكتب قبل استقالته بعام فصلا طويلا عن وجوب تغيير الطريقة القديمة فى الامتيازات الاجنبية ، ثم نشر فصلا ضافيا فى هذا الموضوع ، اطلع عليه الناس وقتئذ ... فكانت حملاته على طريقة الامتيازات متتابعة كحملاته على صندوق الدين قبل ان ينال مراده .

وليس بنا من حاجة الى زيادة الاسهاب فى هذا الباب ، فان كل خطبة لرجال الحكومة الانجليزية ، وكل تقرير من تقارير لورد كرومر ، وكل أثر من آثاره السياسية ، يظهر حقيقة تلك السياسة التى اتبعها الشيخ الراحل . ولقد كان تقريره الاخير كوصية سياسية قبل رحيله عن هذا الوادى .. وفى تلك الوصية لا ينصح دولته ببسط الحماية على مصر الآن لان بسطها

(١) وقعت حادثة فاشودة فى أكتوبر سنة ١٨٩٨ ، اذ احتل الكولونيل مارشان بفرقة من الجنود الفرنسية جزءا قال الانجليز انه تابع للسودان، وأن لمصر حقوق السيادة عليه . وقد بلغ النزاع بين بريطانيا وفرنسا مبلغا كادت تقوم من ورائه حرب بين الدولتين .

يقضى بتغير فى الحالة السياسية مع ان انجلترا تعهدت فى الاتفاق الانجليزى الفرنسى ، بأنها لا تغير شيئا من تلك الحالة ، كما تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انجلترا فى القطر المصرى .

نتيجة تلك السياسة

فما هى نتيجة تلك السياسة كلها ؟

نتيجتها اننا اذا نظرنا اليه بعين انجليزى فلا يسع الناظر سوى الثناء عليه . أما اذا نظرنا اليه بالعين التى يجب على المصرى أن ينظر بها الى مصلحة وطنه ، فلا يمكننا أن نصوغ له شيئا من الثناء على عمله السياسى فى مصر ، فانه حرم مصر من حياة سياسية تطمح اليها كل أمة حية . واذا كنا لا نستطيع سوى الاعتراف بأن اللورد وسع نطاق الحرية الشخصية ، فلا يمكننا أن ننكر أنه فعل العكس كل العكس مع موظفى الحكومة من المصريين فنزع حريتهم وسلطتهم ونفوذهم ، وألقاها فى أيدى الموظفين الانجليز ، فبات كثير من أذكياء الشبان المصريين ينفرون من وظائف الحكومة . ولا أدل على هذا من شدة احتياج الحكومة الى موظفين ومستخدمين . ولا نظن ان قلة الكفاءة التى يذكرها اللورد فى تقريره الا نتيجة التعليم الناقص ، وسوء معاملة الموظفين والمستخدمين فى الحكومة ، وربما كان يرى خذلان التعليم الصالح موافقة لمصلحة بريطانيا العظمى ، لان اللورد كان ينظر فى كل امر الى مصلحة دولته قبل كل شيء : سنة الوطنى الغيور على وطنه .

وانه لمن هذا الطراز كلامه عن الوحدة الاسلامية وعن وجود التعصب فى القطر المصرى ، مع ان التعصب ليس

له فيه اثر على الاطلاق ، ولكن المصلحة البريطانية ، تريد أن تمثله هائلا مخيفا . ومن هذا الطراز أيضا كل عمل وكل اتفاق ، وكل خطوة وكل حركة لذلك السياسى الانجليزى العظيم .

وربما كان فى وسع اللورد أن يحصل لدولته على أكثر من الفوائد التى حصل عليها .. لو انه صرف همته أيضا فى كسب ولاء المصريين الذين وصف نفسه بأنه صديقهم، ولو أنه وضع للتعليم العام قواعد تجعله منتجا مفيـــدا للأمة ، ودفع عن المعارف العمومية ، من كان يناهضها ، واعتمد فى الاصلاح على أكفاء المصريين ، ورشحهم بحرية العمل الى حسن الادارة ، ورغب عن محو الجنسية المصرية الصميمة بما قال من انشاء جنسية دولية لمصر .

لا شك أنه بذلك كان يكسب لدولته صـــداقة الامة المصرية ، ولشخصه ثناء من المصريين يعادل ثناءهم عليه لعمله على نمو الحرية الشخصية واحترام الحق والمساواة بين طبقات الامة .

خصائص السياسة الانجليزية

للسياسة الانجليزية عدة خصائص أو بالاولى عدة قوى متماسكة متضامنة يتألف من مجموعها تلك السياسة التى تحكم على خمس العالم . واحدى تلك المميزات انها لا تنقل سفيرا فى دولة ولا حاكما فى مستعمرة ولا معتمدا فى بلد ، الا اذا قضت الدواعى القاهرة كما حدث للورد كرومر معتمدها فى القاهرة .. فان هذا السياسى الكبير يقيم فى العاصمة المصرية منذ بضعة وعشرين عاما . ولولا طول اقامته لما تمكن من اظهار مقـدرته لان النقل يقطع

على السياسى سلسلة أفكاره التى يتمكن بها من الصعود الى أعلى مراتب العلاء .

فلورد كرومر كان كبيرا بثلاث : مقدرته الشخصية ، ومساعدة دولته له بكل قواها ، وسعة الوقت الذى انفسح له فى مصر . وكان من يرسل نظرة شاملة الى أعمال لورد كرومر منذ تعيينه معتمدا لدولته فى هذا الوادى ، يجد أن تلك المزية فى السياسة الانجليزية ساعدته أعظم مساعدة لانها مكنته من اتمام سلسلة أعماله حلقة فحلقة ، والرجل كان يشهد له الخصوم قبل الاحباب بأنه بعيد مرمى النظر ، طويل حبل الصبر ، فكان كل عمل يأته تمهيدا لما يأتى بعده ، وتوطئة للفرض الذى وضعه نصب عينيه ، فما وافق على ترك السودان فى أوائل عهد الاحتلال الا ليبقى استئناف الحملة على السودان وسيلة جديدة بين يدى الاحتلال يتوصل بها لزيادة توطيد القدم الانجليزية عند الفرصة الموافقة ، وقد عرضت له تلك الفرصة سنة ١٨٩٥ حين علم بسير القائد الفرنسى مارشان نحو السودان المصرى . وما عقد بعد فاشودة من الاتفاق السودانى مع فرنسا الا ليزيل ما بقى من آثار الاستياء فى نفوس الفرنسيين بعد تلك الحادثة ويمهد السبيل لاطلاق يد الاحتلال فى المالية داخل القطر ، واطلاق يد حكومته من الوجهة السياسية، فكان له ما أراد باتفاق سنة ١٩٠٤ مع فرنسا ، ثم بموافقة سائر الدول صاحبات الشأن فى صندوق الدين على

ما يتعلق بمصر ، فتزعزع من تلك الساعة اساس هـذا الصندوق .

وما مد اللورد يمين المساعدة فى ذاك الاتفاق اكتفـاء بمزاياه فقط ، بل قال فى نفسه نحن نغنم ما يقدمه من المزايا السياسية والمادية ، ثم نجعله تمهيدا جديدا لمشروع آخر عظيم هو تغير تلك الامتيازات فى مصر ، وحصر السلطة التشريعية فى قبضة بريطانية ، وما هذا المراد بالامر المستحيل ما دام الاتفاق الودى موجودا بين لندن وباريس .

الفصل الخامس :

ردّى على اللورد كرومر

المصريون فى رأى اللورد كرومر

على اثر استقالة اللورد كرومر ، نشر تقريرا عن آرائه وأفكاره وماقام به من أعمال فى القطر المصرى ، وقد تناول هذا التقرير طبيعة المصريين واخلاقهم وأفكارهم ، كما تناول ميولهم نحو الجامعة الاسلامية التى كانت تجول فى خواطر بعض المصريين فى ذلك الحين · وقد قمت فى مايو سنة ١٩٠٧ بالرد على ماحواه هذا التقرير من أخطاء وادعاءات ·· وانى ألخص هذا الرد فى الصفحات التالية :

ليس من موضوعنا أن نبحث عن قيمة الشرقى على العموم من جهة الاخلاق الثابتة وآثار التطور المدنى فى تلك الاخلاق ، ولا من جهة كفاءته السياسية لتدبير شئونه وحكم نفسه ، ولا من جهة تاريخ الشرق فى التمدن ، ولا من جهة ان اليابان من بلاد الشرق كما استثناها اللورد كرومر فى تقريره معتذرا بعدم معرفتها .. ولكنا نتعرض الى تفسير تلك الجملة المبهمة الكثيرة المعانى القليلة الالفاظ التى صدر بها هذا الموضوع فى تقرير اللورد ..
قال الاستاذ سايس : « ان الذين اقاموا فى الشرق

وحاولوا الاختلاط بأهله يعلمون حق العلم انه يستحيل مطلقا على الاوروبى أن يتحد فى النظر مع الشرقى . ومن المحقق ان الاوروبى بادىء الامر يظن انه هــو الشرقى يتفاهمان ولكنه يأتى وقت ـ عاجلا أو آجلا ـ يرى الاوربى نفسه يحس فجأة ان ذلك كان حلم نائم ، ويجده أمام انسان ذى ملكات عقلية غريبة بالمرة حتى ليظنه من سكان زحل » .

وبهذا الرأى يدين اللورد كرومر ، ويحكم به على الشرقيين الذين يعرفهم لا على اليابانيين والصينيين .

صدق الاستاذ سايس اذا كان قوله منصرفا الى أن الاخوين الشرقى والعربى مختلفان فى النظر جدا فيما يتعلق بتفضيل المنفعة المادية على المنفعة الادبية . أو بعبارة أخرى ان الشرقى بذكائه وأطوار تمدنه ، ولغاته المملوءة بضروب المجازات ، وجوه القليل والاضطرابات وطبيعة أوطانه ، وما ألفه من التقاليد الدينية العريقة فى نفسه ومواعظ أسلافه الغالب فيها تفضيل الزهادة . كل ذلك يجعله يميل بطبعه الى أن يجعل للفضائل الادبية كالاحسان والكرم والوفاء والاخلاص الدينى المقام الاول فى حياته الدنيا ، ويفضلها على المنافع المادية .. فعيب الشرقى قد يكون فى سهولة اخلاقه وسلاسة انقياده ، كما وصف به أرسطو سكان آسيا الذين يشهد لهم بالذكاء المقتضى صحة الانتاج ، ولكنه عاب عليهم ما ينتجه تأصل طبائع الاستبداد فى حكوماتهم . ولا يظن المطلع على تقرير اللورد انه أراد بقوله الاشارة الى تلك الفضائل .. خصوصا انه ليس فى مقام مدح الشرقى ، ولكن الذى يطلع على هذا الموضوع من التقرير يرى انه يريد بيان مسألتين :

أولاهما : ان أفكار المصريين عقيمة غير منتجة الى حد أنه يصعب معرفة مقاصدهم وآمالهم السياسية ، وأقام على ذلك دليلا هو أن أفكارهم بعيدة عن تطبيق هذه القاعدة : « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة » .. لان بعضهم يظهر له الرغبة فى الرضى عن نتائج الاحتلال دون الرضى عن الاحتـــلال . وأن أحدهم طلب اليه تعيين مهندس انجليزى لتقسيم الماء . وبعضهم طلب قاضيا انجليزيا للفصل فى قضية .. ولا نتعرض هنا لذكر الاشياء التى حملت هؤلاء الاشخاص على مثـل هـذه الطلبات على فرض ان طلباتهم تؤخذ على شعور المصريين جميعا . بل نرجىء هذا البحث الى الفصل الخـــاص بالموظفين .. وغاية ما نورده هنـــا هو مناقشة القاعدة « من يبغ المطلب يبغ الوسيلة »؟ .

وجد الاحتلال الانجليزى فى مصر بعلة اطفاء الثورة وتأييد سلطة الخديوية المصرية والمحافظة على المصـالح الاوروبية ، ثم تدرجت العلة الى اصلاح شـئون الامة المصرية واعدادها لتحكم نفسها بنفسها ، وليأمن الانجليز على حقوقهم التى كسبوها فى مصر . ثم ينصرف عنها الاحتلال .

متى كان هذا هو غرض الاحتلال ، وكانت أعمـال الاحتلال الظاهرة الحسية تؤيد هذا الغرض ، فيكون المصرى الذى يرضى بالنتائج (أى بالاصلاح الذى لاجله جاء الاحتلال) ولا يرضى بالاحتلال هو انسان عقيم النظر حقيقة .

أما وقد رأى المصرى رأى العين أن الاحتلال لم يثبت له بالحس أن علة وجوده فى مصر هو تأهيل مصر لان تحكم نفسها بنفسها ، بل رأى بين الغرض من الاحتلال وبين

كثير من أعمال الاحتلال فى مصر بونا بعيدا فأشكل عليه الامر الى حد ان المصرى المنصف الكثير التدبر والتروى ، الذى لا يشوب حكمه على الامور فى مصر غرض من الاهواء ، يكاد كلما طابق بين علة الاحتلال وبين عمله .. يقع فى روعه ان للاحتلال مقصدا خفيا غير ما يقول الساسة الانجليز . ولا شك فى أن مثل هذا معذور اذا رضى بنتائج الاحتلال دون الاحتلال الذى أشكل المقصود منه على العقول .

***

بشر المصرى آماله حين رأى احترام الحكومة للحرية الشخصية التى نشرها الاحتلال والغاء السخرة وغيرها ، والقيام بالاعمال النافعة ، ولكنه لم يلبث ان رأى الاحتلال بعد ذلك بقليل قد ظهر فى كثير من المواطن بمظهر المعاند ، فأخذ أولا يقتسم هو والخديوية المصرية آراء الناس وميولهم ، فأخذ الناس أيضا بمقتضى هذه المعاندة بين السلطتين أن يلتجىء كل الى ما يرى فى الالتجاء اليه مصلحته الذاتية ، لان المصلحة العامة هى فى ألا يلتجىء الناس الى أحد الطرفين دون الآخر ، لان انتشار ذلك يضيع شخصية الامة ، ويجعلها كما كانت لا حق لها الا الطاعة للأمير (ان سميت الطاعة حقا) ــ ولا ينكر أحد أن تنازع السلطتين من طبعه أن يجعل العناد يتخلل كثيرا من أعمال كلتيهما ــ كلما ظفر الاحتلال بالسلطة قرب كثيرا من الذين لا يهمهم الا مصالحهم أو رواتبهم ، ثم التفت الى التعليم العام فى المدارس الاميرية فوصل بها الى هذا الحد الذى نراه اليوم ، والذى جعل الحكومة نفسها تشكو قلة الاكفاء بل ندرتهم . ثم مال الى النفوذ

الشخصى للحكام الوطنيين فجردهم منه ، وانحصر عملهم فى الطاعة لغيرهم من الانجليز ســواء أكانوا رؤساء أم مرءوسين . ثم لم يستبدله بمشاركة الامة له فى الحكم .. فاعتقد المصريون أو أغلبهم ان الاحتلال هو لمصلحة انجلترا وأوروبا بالذات ، حتى لقد غلا بعضهم فى تقدير فهمه العدل الذى جرى على يد الاحتلال ، فقال ان انجلترا مهما كانت نياتها لمصر ، لا يمكنها الا أن تعدل ما دامت ترى أن لا مصلحة لها فى الظلم .

فهل يكون المصرى غير منتج اذا بنى فكره على الاعمال المشاهدة من خير وشر ، واستنتج من هذه الاعمـال نتيجتها اللازمة ، وهى ان الاحتـــلال قد جاء ببعض الفوائد ، ولكن تمشيه على طريقة حرمان الامة من الحياة السياسية خطر على الامة يوجـد الضجر والقلق وسوء الظن بالاحتلال ، كما قدمنا . فتكون النتيجة أن تطبيق القاعدة المذكورة على وجود الاحتلال (وهو الوسيلة) وعلى فوائده (وهى المطلب) من الصعوبة بحيث لا يمكن تطبيقها من غير تعسف الا اذا أبان الاحتلال لمصر انه يسعى فى منح مصر حياة سياسية بالتدريخ . والمؤمل انه يعمل على ذلك . ولا ينكر منصف أن الحكومة اهتمت فى هذه السنين الاخيرة بأمر نشر التعليم بين طبقـات الفلاحين ، ونجحت فى تذليل كثير من الصعوبات التى كانت تقف فى طريق تعليم البنات .. ولو أضافت الى ذلك منح الامة شيئا من الاشتراك معها فى العمل لاقتنع الناس بأن الاحتلال مؤقت وانه لا يقيم الا ريثما تصلح مصر لحكم نفسها بنفسها ، ولامكن بعد ذلك القول بحق أن من « يبغ المطلب يبغ الوسيلة » .

ولكن هناك أمرا آخر لا يصح اغفاله ، لانه قد زاد من الاحتلال ابهاما على ابهام وهو ما ذكره اللورد كرومر فى خطبته الاخيرة فى حفلة الوداع .. تلك الخطبة التى هى منصبة فى أغلب معانيها على الغرض السياسى الخطر الذى يحاول اقناع العالم به ، وهو جعل مصر مستعمرة أوروبية مختلفة يكون للأوروبيين فيها الغنم ، وعلى المصريين منها الغرم فكان مهر قبول هذه الفكرة لدى الاوروبيين أن صرح فى خطابه بأن الاحتلال باق فى مصر الى ما شاء الله ، فكان فى هذا التصريح التباس جديد على الناس .. ولكن مع ذلك نرى ان هذا التصريح ليس من شأنه أن يؤثر تأثيرا جوهريا فى السياسة المصرية لان لان وقت التفكير فيه لم يحن بعد ..

ومن هذا يرى القارىء ان عدم صحة الفكر المصرى فى الانتاج لم تأت من طبيعة له ولا من عرض ملازم له ، بل أتت من امكان الحكم على مقاصد انجلترا من الاحتلال

الجامعة الاسلامية

المسألة الثانية هى : الجامعة الاسلامية .

ان فكرة الوحدة الاسلامية قد تجول أحيانا بخواطر بعض الناس الذين لا يزالون بعيـــدين عن الاشتغال بالسياسة والنظر فى الامور العامة بشىء من التدقيق . ولكن تلك الفكرة لم تخرج عن حيز الخـــواطر ، تظهر وتختفى تبعا للحوادث . فلكما رأى المصريون اتفاق رجال السياسة الاوروبية على شىء يضر بمصلحة مصر ، أو يبعد ميعاد استقلالها أو يفيد استمرار الاحتلال الى الابد ، قارنوا بين مصر وبين غيرها من ولايات البلقـــان التى استقلت ، واستنتجوا من ذلك أن ذنب مصر انهـــا أمة اسلامية ، وأن أوروبا لا تساعد فى الشرق الا الامم المسيحية ، فتمنى بعضهم لو كان للمسلمين وحدة كما فى أوروبا هذه الوحدة التى يتخيلون وجودها ، وانهـــا كانت الحامل لاوروبا على التداخل فى أمر ولايات البلقان وأرمينية . نقول ذلك ونحن لا نعرف أنه يوجد فى اللغة كلمة جامعة مسيحية « بانيكريستيانزم » كما خلقت كلمة جامعة اسلامية « بانيسلامزم » .

على ان عقلاء المصريين لا يرون لكلتيهما وجودا فى العالم ، ولكن السياسة تخلق ما تشاء .. فليس لاوروبا أن تتوجس خيفة من فكرة ساذجة كهذه ، بعيدة عن أن

تؤدى الى اعتداء من جهة المصريين ، ولا أن تسبب قلق المستعمرين من الاوروبيين . بل يرى هؤلاء العقلاء ان الذى خلق هذا الخاطر الساذج هو مظاهر السياسة الاوروبية فى الشرق .

أما كون الجامعة الاسلامية موجودة وجودا حقيقيا ، أو أنها مقصد من المقاصد التى يسعى المسلمون لتحقيقها فهذا لا دليل عليه مطلقا .. كما أنه لو حوول ايجادها لاستحال ذلك بالمرة على طلابه .

علمنا التاريخ ، وطبائع البشر انه لا شىء يجمع بين الناس الا المنافع ، فاذا تناقضت المنافع بين قلبين استحال عليهما أن يجتمعا لمجرد قرابة فى الجنسية ، أو وحدة فى الدين . وأن أبلغ مثال على ذلك هو انشقاق المسلمين على أنفسهم فى خلافة أمير المؤمنين على بن أبى طالب مما هو مشهور ومأثور . ان أحسن ما قرأنا فى الجامعة الاسلامية ، هو ما ذكره الاستاذ براون فى خطبته التى ألقاها فى جامعة كيمبردج سنة ١٩٠٣ وأبان فيها أن الجامعة الاسلامية خرافة ابتدعها دماغ مكاتب التيمس فى فينا . قال الاستاذ براون :

« انه ليس من السهل تعريف مسنى البانيسلايزم بعبارة تنطبق على المثل العربى المشهور « خير الكلام ما قل ودل ومع الاسف اننى استشرت أحد أصدقائى المسلمين فى هذا الموضوع ، فعرفنى معنى «بانيسلامزم» بلا تردد فى بضع كلمات ، وهى « البانسلامزم هى خرافة خلقها دماغ مكاتب التيمس فى فينا » .

وأن تجسيم الامر فى نفس عميد الاحتلال فى مصر الى حد أنه قد جعله تعصبا للدين لا محل له بالمرة ، الا

اذا كان الفرض منه بعث القلق الى نفوس السياسيين من الاوروبيين حتى لقد جره ذلك الفرض الى التعريض بأحكام الدين الاسلامى ، وادعى أنها غير صالحة الى أن تطبق فى هذا الزمان .

قال ذلك بتصريحات كان من عادته أن يتوقاها مراعاة لاحترام الدين الاسلامي وتفاديا من جرح شعور المسلمين . نقول على غير عادته لانه كثير الاحترام للدين الاسلامى ؛ كثير الحيطـــة في التعبير عنه بشيء يتعلق به ، وكل تصريحاته مستفيضة في هذا المعني ، فقد قال فى خطبته فى كلية غوردون فى ٤ يناير سنة ١٨٩٩ :

« ولا يخفى عليكم ان جلالة الملكة ورعايا المسيحيين من أشد الناس استمساكا بعروة دينهم ، ولذلك فهم يعرفون وجوب احترام دين غيرهم . على أن حكم جلالتها يظلل من المسلمين عددا أكثر مما يظل حكم أى ملك فى الارض ، وهم مع ذلك فى عيشة هنية ، وسعادة تحت حكمها الكثير الخيرات ، دينهم موقر ، وعاداتهم الشرعية محترمة كل الاحترام .. الخ » .

وقد يؤثر عنه أنه كان يشير الى أن المسلمين لا تصلح حالهم الا اذا تمسكوا بدينهم الصحيح . وقد ذكر فى تقرير سنة ١٩٠٥ ، وفى تقرير سنة ١٩٠٦ ، ما يفيـد امتداح الذين يقومون بخدمة الدين وتخليصه من الدخائل التى متى خلص منها كان موافقا لحاجات الناس فى التمدن الحديث . وخص منهم بالذكر فقيـــد الاسلام المرحوم الشيخ محمد عبده ، والسيد أحمد منشيء كلية عليكرة . ولهذه المناسبة نورد للقاريء نص الخطـــاب الذى ألقاه اللورد كرزون فى كلية عليكرة فى شهر مايو

سنة ١٩٠١ مشيرا فيه الى فوائد الدين الاسلامى ، والاعتراف بما للمسلمين من الفضل والمدنية :

« نعم يمكن للمسلمين أن يسابقوا غيرهم اذا هم تعلموا كيف يسابقون ، وهو ما عرفوه مرة قبل هذا الوقت في أيام كان فيها للمسلمين السطوة والسلطان ، وكان قضاتهم يحكمون بالعدل بين الناس ، وفلاسفتهم وأئمتهم يؤلفون الكتب النفسية » .

وان عدول اللورد كرومر عن خطته من عدم التعرض للطعن على الدين الاسلامى بأى صورة ، ومخالفة لبعض ساسة الانجليز مثل اللورد كرزون فى الآراء المتعلقة بأن الشريعة الاسلامية أسمح من أن تعيق عن حاجات التمدن الحاضر ، كل ذلك جعل الناس يكادون يجمعون على أن اللورد أراد أن يصور المصريين للانجليز خصوصا ، ولاوروبا عموما بصورة أمة غير قابلة للرقى لتسهل بذلك الموافقة على محو الجنسية المصرية الصميمة التى يحاول محوها منذ عامين . لذلك قصد تجسيم الجامعة الاسلامية ، وعزا لها ما عزا .

التعصب الديني

بعد أن رأى القارىء ان الجامعة الاسلامية لا أثر لها فى مصر ولا نظن لها وجودا فى غير مصر ، وانها على هذه الصفة من العدم ليس من شأنها أن تزيد الجفاء بين الشرق والغرب ، ولا أن تصلح ذريعة لرجال السياسة الاوروبية يتخذونها سترا يستر أعمالهم فى الشرق .. قد يكون من المفيد جدا فى هذا المقام أن نتعرض الى مناقشة تلك التهمة الثانية التى يربطها بالجـــامعة الاسلامية رابطة النسب أو رابطة العلة والمعلول ، وهى تهمة التعصب الدينى .

والدين الاسلامى يأمر بالتعاون والتعاضد والائتلاف بين أفراد الامة ، كما يأمر بالعدل والاحسان ، ويوصى خيرا بالمتحالفين له من أهل الاديان الاخرى على الصور المستفيضة فى الفقه . وليس من مبادئه مطلقا التعصب الشائن الذى يعبر عنه الافرنج « بالفاناتيزم » .

أهل الدين الواحد يوجد بينهم بحكم وحدة الاعتقاد حب ومعاونة ، تختلف وجوه استعمالها باختلاف الصور العديدة التى تصورها لهم افهامهم فى الدين . وأن هذه الجاذبية الدينية تماثل الجاذبية التى تولدها وحدة العنصر أو وحدة اللغة . ونظن أن الاوروبيين لم يقصدوا يوما « بالفاناتيزم » هذه الجاذبية بوجه ما ، ولكنهم يقصدون

بالتعصب الدينى معنى عدائيا هو التحرش بغير المسلمين وحضارتهم ، والتربص بهم فلا يبقون عليهم .. وهذا المعنى لا أصل له فى الدين ، كما لا أصل له فى نفوس المسلمين الذين كل جنايتهم أمام أوروبا أنهم أخذوا يفكرون فى أن ترقى عقولهم بالتعليم ونفوسهم بالحرية ، وأن يدفعوا بجميع الطرق السلمية كل مبدأ أو قوة تعمل على الحيلولة بينهم وبين ما يشتهون من الرقى العقلى ليسابقوا غيرهم فى الحياة المدنية . وأنهم يتعلمون الآن من الاوروبيين ، فكيف يمكن أن يضمروا لهم ما يتجنى به هؤلاء عليهم ليبعدوهم عن كل مدنية ، وليسهلوا لانفسهم دوام الاستفادة منهم دون أن يفيدوهم . أظن أن وجه المسألة على هذه الصورة مقلوب الوضع ، وان المسلمين هم أولى بأن يتهموا الاوروبيين بالتعصب ، ولكنهم لا يريدون ، ولا يستطيعون .

التعصب الدينى شعور لا يمكن للمنصف أن يحكم بوجوده الا بآثاره . ومن المشاهد أن الاقباط فى مصر يعيشون مع المسلمين مختلطين فى المصالح والمساكن متكاتفين فى المزارع والاعمال ، متجاورين على مقاعد المدارس متشاركين فى الوظائف والمرافق ، ولم يسمع من زمان بعيد أن المسلمين الذين قد أمرهم الدين بحسن المعاملة هاج هائجهم على اخوانهم أو أظهروا يوما بما يقتضيه وجود التعصب الدينى فى النفوس من الحقد الذى يقدح زنده الاشتراك فى المصالح . ومن المشاهد أيضا أن الرومى يجىء به طلب الرزق الى مصر منفردا .. يدخل احدى قراها البعيدة عن مراكز الحكومة فيتزلف الى كبار أهلها فيفسحون له فى مساكنها ملجأ يأوى اليه،

فلا يزال بتجـــارته الرابحة من بيع الزيتون والجبن بأضعاف القيمة بثمن آجل حتى يصبح ذا مال يقرضه الى الفلاحين بالربا الفاحش ، ولا يلبث على هذه الحال قليلا من الزمان الا هو دائن لأغلب أهل البلد ينزع ملكية

أرضهم ويستخدمهم فيها عمال بسطاء . وكل هذا لم يحرك فى نفوسهم ذلك التعصب الدينى الموهوم . أليس ذلك الا لان هذا التعصب عديم الاثر فى نفوس مسلمى مصر ؟

أقام اللورد كرومر على هذه التهمة الشنعاء التى اتهم بها المصريين دليلين ، أحدهمـا مسـطور فى تقريره عن سنة ١٩٠٥ بمناسبة حادثة الهماميل فى الاسكندرية ، وكان فيها أن مصريا ويونانيا تشاجرا على مشترى قطعة من الجبن ، فطعن اليونانى المصرى طعنة بسكين فقضى عليه . وأعقب ذلك أن يونانيا أراد قتل يونانى آخر بغدارة فأخطأه وأصاب وطنيا ، فمات . فاجتمع رعاع الفريقين . وقال بعض فريق المسلمين « اقتلوا النصارى » .

والثانى حادثة العقبة التى جعلت بعض الجرائد أو بعض الناس يظهرون ميلهم الى تركيا بمناسبة الخـلاف بينهما وبين الحكومة المصرية على تحديد التخوم المصرية فى تلك الناحية .

أما الحادثة الاولى فلا تثبت من التعصب شيئا لان من الامور الطبيعية ان الناس ينتصرون للمظلوم خصوصا اذا كان من بنى جنسهم . وقد روت روتر فى ذلك الحين ان روســيا فى باريس أطلق الرصــاص على جنديين فرنسيين ، فهم الاهالى بقتله لولا أن رجال البوليس انقذوه من أيديهم ، ولم يقل أحد بأن انتصار الاهالى

فى باريس للجنـــديين كان سببه التعصب الدينى ، فانتصار الوطنيين للقتيل ، وانتصار الاروام وغيرهم للقاتل هو من الامور الطبيعية التى لا تثبت وجود التعصب الدينى عند المصريين . لم يبق بعدئذ الا قول بعضهم « اقتلوا النصارى » فلو صحت نية هؤلاء الصائحين بهـــذه الصيحة وقابلوا مسيحيين من المصريين أو من السوريين لما مسوهم بسوء . ولـكن لفظة النصارى فى لغة الرعاع مرادف للافرنج أو نحو ذلك ، فان كان فى نفوسهم عصبية لـــكانت عصبية جنســـية لا عصبية دينية .

أما حادثة العقبة .. فيحسن بنا أن نلفت نظر القارىء الى سبب الحركة الفكرية التى جرت فى مصر ابان حادث العقبة ، كان من جرائها أن أساء الانجليز الظن بالمصريين وافتكروا أن هؤلاء يتبرمون بهم ويودون لو استبدلوا الاحتلال التركى بالاحتلال الانجليزى . وأن مثـــار هذا التبرم هو التعصب الدينى من المصريين للترك . وقد جر هذا الفهم الى نتائج مشئومة .. ولكنا نظن أن الانجليز متى عرفوا السبب الحقيقى لهذه الحركة وانصفوا يقلعون عن تهمة المصريين بالتعصب ، تلك التهمة التى تسوؤنا أكثر مما ساءتهم .

نلتمس علل الاشياء بقياسها على أشباهها ونظائرها . فاذا أردنا أن نلتمس علة هذه الحركة الفكرية الحقيقية التى وجدت بمناسبة حادث العقبة حسن بنا أن نرجع بها الى نظائرها من الحوادث . ولا نجد حادثة أشبه بهـــا من جميع الوجوه أكثر من حادة فاشودة . فان الانجليز كانوا يدفعون الترك عن العقبة باسم الحكومة المصرية

لمصلحتها ومصلحة الحكومة الانجليزية ، كما كانوا يدفعون الضابط مارشان عن فاشودة باسم الحكومتين المصرية والانجليزية ولمصلحتهما أيضا . وكان النزاع بين الانجليز وبين الترك على الحدود الشرقية كما كان بينهم وبين الفرنسيين على الحدود الجنوبية المصرية . فماذا كان ميل المصريين وقتئذ بالنسبة لحادثة فاشودة ؟

كانت فى مصر حركة أفكار تتجه فى مجموعها الى اجتذاب الناس الى فرنسا أو الى مارشان وجماعته فكيف جاء هذا الشعور ، وما مصدره ؟

هل كان مصدره فى النفوس أيضـــا تعصبا دينيا لفرنسا ، أوجب استبدال الاحتلال الفرنسى بالاحتـلال الانجليزى ؟

لا هذا ولا ذاك .. ولكن من الطبائع العمرانية انالامة متى أبعدت عن ادارة حكومتها وجهلت مقاصد حكامها ، أو ظهر لها منهم عين لاستئثار بالمنفعة دونها ، وحملها على ما تهوى وما لا تهوى من غير أن تستشار ، كل ذلك يدعو بها الى أن تتبرم بحكومتها اذا كانت حكومة وطنية ، فاذا كانت أجنبية فيـــكون التبرم والمقــاطعة من باب أولى .

ومثال ذلك الحركة الفكرية للأمة فى أوائل الثورة العسكرية سنة ١٨٨٢ فان الامة كانت قلقة تحب الخروج من ذلك الاحتلال الفعلى الشركسى وان كان قلقها هـذا لم يتعد حد القلق ، لانه لم تكن لها فى الثورة العسكرية فكرة ثابتة ولا مشاركة حقيقية . فهل كان هذا القلق والضجر من حال الحكومة ، ومن قانون العســـكرية ، مترتبا على تعصب دينى من المسلمين ضد المسلمين ؟ لا شيء

من ذلك أيضا فلو استقرأنا كل العلل الممكنة التى ولدت حركة الافكار فى سنة ١٨٨١ وسنة ١٨٩٨ بمناسبة حادثة فاشودة ، وسنة ١٩٠٦ بمناسبة حادثة العقبة استقراء صحيحا خاليا عن الغرض ، اوجدنا أن العلة فى كل ذلك واحدة ، وهى قلق من عدم اشراك الحكومة اياها فى شىء من الحكم .

ولكن ذوى الاغراض ــ عن جهل أو سوء قصد ــ جاءوا يصورون تلك الحركة الفكرية لعميد الاحتلال فى صورة التعصب الدينى ، وهو قد صورها فى الصيف الماضى لاوروبا بصورة مزعجة ــ كل ذلك ، والامة هادئة بعيد عن التعصب وآثاره .

الفصل السادس :

طالبنا بالاستقلال التام فقالوا خرجتم على الباب العالى

الاستقلال والدستور

بعد ظهور صحيفة الجريدة ببضعة أشـــهر تألف « حزب الامة » فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٧ . وقـد تضمن منهاجه عدة مبادىء فى رأسها المطالبة بالاستقلال التام (١) والمطالبة بالدستور ــ وأقل درجاته توسيع اختصاص مجلس شورى القوانين ، ومجالس المديريات، تدرجا الى ايجاد مجلس نيابى تتمثل فيه ســـلطات الشعب . وقد أختير محمود سليمان باشا رئيسا لهذا الحزب ، وحسن عبـد الرزاق باشا الـكبير ، وعلى شعراوى باشا وكيلين له ، واخترت أنا سكرتيرا عاما .

(١) حينما اعلن الحزب هذه المبادىء كان من المعترضين على مبدأ الاستقلال التام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ، واتهم الحزب بالخروج على الدولة العثمانية صاحبة السيادة الرسمية على مصر فى ذلك الحين ، فرد عليه بأن الحزب يقول الاستقلال التام ولم يقل الاستقلال الكامل ، وهناك فرق بين الكمال والتمام يظهر فى قول القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى » فسكت الشيخ على يوسف بهذه الحجة . وانى لا زلت آسفا حتى اليوم لذلك الرد ، فان الاستقلال الكامل أشمل من الاستقلال التام ، لان المعنى فى « أتممت عليكم نعمتى » أى أسبغت عليكم نعمتى ، ولا يلزم ان يكون أكملت .

وقد اتخذت بعض الصحف من مطالبة هذا الحزب بالاستقلال التام ذريعة للتشنيع عليه ، واتهامه بالخروج على الباب العالى صاحب السيادة على مصر فى ذلك الحين ، ولكننا لم نأبه لهذه التهمة ، ومضينا فى طريقنا .. وكان لنا كثرة أو شبهها فى مجلس شورى القوانين ، فأخذت فى مهاجمة الحكومة الاستبدادية والمطـــالبة بالدســـتور ، وقدم محمود سليمان باشا وحسن عبد الرازق باشا الى رئيس الحــكومة مشروعا بتوسيع اختصاص مجالس المديريات . فقدمت الحكومة مشروعا آخر أقل سعة من مشروعنا ، وقد سرنا انها سارت فى هذه الطريق للوصول الى تحقيق ارادة الامة ، والتحرر من سلطة الحكومة الشخصية .. تلك الحكومة التى لا تستمد وجودها الا من أصل واحد هو عبادة البسالة ، عبادة القوى ، عباة القهر والغلبة والاستبدا ، وما يجتمع حول تلك العبادة من الاوهام التى تتجسم فى رءوس العامة ، وقد جاء العلم ، ففتح للناس أسرار العالم وأصبح العالم بذلك هو موضوع الاعجاب والاكبار ، وصار العظماء أمام هذا العـــالم الطبيعى وقــوته لا نصيب لهم من ذلك الاعجاب والاكبار ، فتجردوا بهذه المثابة عن الاصل الذى كانوا يستخدمونه فى انشاء الممالك المستبدة ، ولــكنه مع ذلك قد بقى فى نفوس الناس طرف غير قليل من الاوهام التى كانت فى كثير من الازمان كافية لاخضاعهم لشخص واحد يتصرف فى دمائهم وأموالهم من غير أن ينزل لسماع أقوالهم أو الاصغاء لرغباتهم ، لذلك كنا ننادى بتوسيع اختصاص الهيئات النيابية توصــــلا للحصول على الدستور الــذى تتقرر به سلطة الحــكومة الشخصية أو حكومة الفرد .

وفى عام ١٩٠٨ أراد حزبى أن أكون مع أعضائه فى مجلس شورى القوانين ، فرشحت نفسى لمجلس مديرية الدقهلية ، لان عضو مجلس الشورى كان ينتخبه أعضاء مجلس المديرية من بينهم فلم أنجح فى هذا الانتخاب ، ثم رشحت نفسى فى الانتخاب الذى بعده سنة ١٩١١ فنجحت ، ولكن طعن فى بأنى لست مقيما فى بلدتى « برقين » وألغت محكمة الزقازيق الانتخاب فعدت للانتخاب مرة أخرى ، فنجحت بأصوات أكثر من الاولى. وكان الخديو فيما يقال يرتاح الى الطعن فى انتخابى . وذات يوم خاطبنى بالتليفون عبد الله وهبى باشا ودعانى الى الشاى فى بيته ، فوجدت عنده جاد بك مصطفى الطاعن فى انتخابى ، فتحادثنا فى شئون الانتخاب ، فقال لى رحمه الله : « ان صداقتى لابيك ، وتقديرى لك يجعلانى أتنازل عن الطعن بشرط أن تأتى أنت ووالدك ، وشكرى باشا المدير للغذاء عندى فى قريتى « صدفة » يوم الجمعة المقبل » .

فأجبته الى رغبته ..

وفى ذلك الوقت عاد الدكتور محمد حسين هيكل من أوروبا ، بعد أن حصل على أجازة الدكتوراه ، أخذته معى فى زيارة لكثير من القرى لاقف على حالة التعليم الاولى ، وأقدم بذلك تقريرا لمجلس المديرية ، وقد فعلت .

ومن طريف ما يذكر هنا ، اننا مررنا بكتاب فى احدى القرى ، فوجدنا قلة فى عدد التلاميذ ، فقلت للشيخ : « أظن انك صرفت الاطفال لتنقية الدودة » .

فقال : « ليس فى بلدنا دودة ، لانى أذنت الاذان الشرعى فى الجهات الاربع للقرية ، فامتنعت الدودة باذن الله تعالى قال هذا وكنا نشم رائحة الدودة حولنا فى المزارع !

بيع الرتب والنياشين

قلت ان الحكومة الشخصية ـ أو حكومة الفرد ـ تستمد وجودها من عبادة البسالة والغلبة والاستبداد . وأزيد هنا ان الفرد من أبناء الامة فى ظل هذه الحكومة ، ليست له حياة ظاهرة ولا شرف معترف به الا بالاضافة لشخص الحاكم . ما دام الافندى لا ينقلب زيه يوم العيد الى زى بطل من أبطال القرون الوسطى ، كل صدره قصب يبرق ، وتعلق عليه نياشين تلمع ، ويحمل بعد ذلك سيفا لا يستطيع أن يجرده ، ولا السيف صالح أن يجرد . فمهما يكن له من شرف المولد ، ورفعة الاخلاق ، وسعة العيش فانه لا يكون شريفا الا اذا حصل على رتبة أو نيشان .

من أجل هذا الشرف الوهمى تهافت الناس على الرتب النياشين ، وصارت تباع فى ذلك العهد ، وتحدثت بها الصحف سنة ١٩٠٨ وقد كان لها سماسرة يسعون فى الحصول عليها لمن يدفع الثمن ، وأصبحت تعطى لا مكافأة على عمل من أعمال البسالة كما يكون بين رجال الجيش، ولا على خدمة كبرى من الخدمات العامة ، بل لعملاء السماسرة الذين يشترون القاب التشريف . وكان السمسار يأخذ المقدم من المشترى ، فاذا تم التشريف يأخذ المؤخر . وكانت الحكومة فى ذلك الوقت تسكت عن هذه الحال لتجعل الناس دائما يهتمون برضاها

عنهم ، فهى تلعب بأهوائهم وشهواتهم وتأسرهم بها .. وتلك عادة الحكومة الاستبدادية القديمة قد تسربت الى الحكومات الحديثة ، فكانت أثرا من الاثار الاستبدادية الاولى . وقد عرفت الحكومات الديمقراطية الراقية أن تتخلص منها ، ولكنها ما تزال فى بعض الشعوب من أهم المؤثرات فى الاخلاق خصوصا فى الشعب المصرى .

سياسة الوفاق وسياسة الخوف

فى سنة ١٩٠٨ أيضا كان قد مضى عام على تعيين سير الدون غورست معتمدا بريطانيا فى مصر خلفـــا للورد كرومر الذى اعتزل منصبه فى ابريل سنة ١٩٠٧ . وقد عرف بعهد سياسة الوفاق . وهى السياسة التى عادت للمرة الثانية بعد أن حلت محلها سياسة الخـلاف بين الخديو عباس واللورد كرومر .

وتبدأ سياسة الوفاق من عهد الخديو محمد توفيق ، فقد دخل الانجليز مصر على وفاق بينه وبينهم ، فألغوا الجيش المصرى ، واستبدلوا به جيشا صغيرا ضباطه من الانجليز ، ثم محوا العلوم الحربية الواسعة فى المدرسة الحربية ، فبدلا من أن يرقوها حتى تخـــرج ضباطا كما تخرج مدارس انجلترا وفرنسا قصروها على تخريج ضباط بدرجة .. هم أنفسهم يريدونها ، درجة تجعل الضابط المصرى مرءوسا دائما . ثم أخذوا يخرجون من الجيش العامل كل ضباط الانجليز . وقــد دل هــذا التصرف فى الجيش على ان الغرض منه اضعاف مصر لا تقويتها . وتلك كانت احدى نتائج الوفاق والتسليم للانجليز بعمل ما يريدون .

لقد جاء الانجليز مصر فوجدوا فيهـــا جيشا ثائرا ومجلس نواب ، فألفوا الجيش الثائر واستعاضوا به غيره ، وألفوا كذلك مجلس النواب .. وكان حقهم أن يبقوه فلم يفعلوا ، بل لم يستعيضوا به غيره ، نقول على وجه التسامح انهم ألفوا مجلس شورى ضئيلا ليــكبر بالزمان فمضى كل عهد سياسة الوفاق ، ولم يفكر الانجليز فى تعديل مادة من مواده حتى يسيروا به الى الامام . وذلك يدل على أنهم كرهوا لمصر أن تتدرج فى الحكم الدستورى .

واذا كان الانجليز لم يعملوا وقتئذ للانسانية وعملوا لتقوية الحكومة بأى شكل ، فكان من مقتضى ذلك أنهم حين أضعفوا حكومة الدستور أن يقووا الحكومة الشخصية أى الحكومة الخديوية ولكنهم لم يفعلوا بل أضعفوها هى أيضا .

ومن الشواهد على ذلك أن ناظر الحقانية وقتذاك ، سعادة حسين فخرى باشا ، رفع تقريرا الى مجلس النظار باستغناء النظارة عن المستشار القضــائى مستر سكوت . وكان الخديو توفيق فى ســــياحته بالوجه القبلى ، فانعقد مجلس النظار وقرر عدم اســـتمرار سكوت مستشارا فى الحقانية ، وأرسل بذلك للخـديو الذى أرسل لمجلس النظار تلغرافا بالموافقة والارتيــاح فلم يكن الا قليل حتى أكرهه اللورد كرومر على الغــاء ذلك القرار . ونتج عن ذلك تمكن الضعف من قــلوب النظار المصريين وزيادة الاستسلام من جانب الخديو ، ووقعت الحكومة كلها فى يد المعتمد البريطانى يفعــل

بها ما يشاء . وكان الفرض من ذلك اضعاف السلطة الاهلية سواء فى ذلك سلطة الحكومة وسلطة الامة .

كان يجرى كل هذا التصرف الذى من شأنه اعدام كل سلطة أهلية من الامة والحكومة معا والسياسة العالمية تجرى فى مجراها على هذا النحو أيضا ، وأكبر الامثلة على ذلك التخلى عن السودان وتركه ، وكان ما كان من معارضة الرجل الكبير محمد شريف باشا الذى كان أحق وزراء مصر على الاطلاق بالتمجيد .. ولكنه لما لم ينجح استقال ، وجاءت وزارة نوبار باشا فأدخلت السودان . ثم فتح على أنه شركة فى الادارة بين مصر وانجلترا كما تعرفون .

التقرب من الانجليز

بعد أن جردت الامة من سلطتها والحكومة الاهلية من هيبتها ، آمن المصريون بأن الانجليز طامعون لا مصلحون، وأخذ كل موظف يحتمى برئيس انجليزى . وأخذ العمد والاعيان يستعينون فى قضاء أعمالهم غير المتناهية بالتقرب من الانجليز تقربا وقتيا دعا اليه حب قضاء المصلحة الشخصية من القادر القاهر ، ولكن هذا التقرب من طبيعته أن يزول بانقضاء تلك المصلحة ، ثم يتجدد كلما جاءت مصلحة جديدة .. فنتج عن سياسة الوفاق هذه فتور عام فى فكرة الاستقلال وتراخ مفاصل الوطنية الصحيحة ، وانصرفت النفوس طبعا عن التعلق بالخديو الذى كان ينسب كل تصرف سيىء للانجليز الى رضاه عنه واقراره عليه . وكان اللورد كرومر والجرائد الانجليزية لا تدع فرصة تمر الا انتهزتها للثناء على الخديو واطرائه بأبلغ الاطراء .

وقد بقيت سياسة الوفاق فى مصر ، وزادت وضوحا منذ فشلت معاهدة سنة ١٨٨٧ لتحديد شروط الجلاء .
وكان للانجليز فى هذه السياسة الغنم وعلى مصر الغرم .. للانجليز فيها السؤدد والمنفعة ، وللمصريين فيها المذلة والخسار . وانتهى عهدها الاول بوفاة الخديو توفيق .
وابتدأ عهد سياسة الخلاف منذ تولية الخديو عباس حلمى الثانى على الاريكة المصرية . ثم تجددت سياسة الوفاق ثانية فى عهده عند تنصيب وزارة نوبار باشا سنة ١٨٩٤ ، ولكن هذا الوفاق الاخير لم يكن بينه وبين الوفاق الحقيقى المبنى على الثقة والمنفعة المتبادلة الا شبه من الطلاء الظاهرى لانه كان مسببا على الاستسلام للقوة ، ثم لم يلبث أن توترت العلاقة بين سمو الامير واللورد كرومر فانكشفت عن جفاء مستحكم الحلقات ، ثم تجددت سياسة الوفاق بعد مبارحة كرومر مصر وتعيين السير ألدون غورست مكانه ، وكان من نتائج هذه السياسة أن تدخل المعتمد البريطانى لم يقل عما كان عليه من قبل ، بل ربما زاد وامتد الى بعض المصالح الاهلية الصرفة .

قانون المطبوعات

فى سنة ١٩٠٩ أرادت الحكومة بعث قانون المطبوعات الذى كان قد صدر ابان الثورة العرابية ، وهو قانون بالغ القسوة على حرية الرأى ، فحملت أنا وزملائى الصحفيون ، على ذلك القانون حملة قوية ، ولكننا لم نوفق لان بعض أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية كانوا قد طلبوا شيئا من هذا فيما سبق ، وعارض فيه اللورد كرومر . ثم لما أريد احياء

هذا القانون وافق عليه الانجليز ووافق عليـه مجلس الشورى بالاغلبية مع الاسف .. وفى صيف ذلك العام سافرت الى أوروبا للاستشفاء ، وعزمت على مقـابلة « سير ادوارد جراى » وزير الخارجية الانجليزية لاشكو له تصرف الانجليز فى حرية الصحافة . وأعطانى صديقى محمد محمود باشا رحمه الله كتـابا لاستاذه المستر سميث عميد كلية « بلبول » باكسفورد ليقدمنى لوزير الخارجية البريطانية الذى كان تلميذا له . فلما سافرت الى اكسفورد ، وكان أخى سعيد وقتها طالبا بها ، قابلت المستر سميث فطلب منى أن أكتب مذكرة بما أريد ، ثم نسافر فى اليوم التالى أنا وهو الى لندرة ليقدمنى الى « السير ادوارد جراى » . وفى اليوم التالى ذهبنا الى لندرة ، ثم الى وزارة الخارجية ، فاعتذر الوزير عن استقبالى بسبب مناورة بحرية ، وأحالنى الى وكيل الوزارة ـ وأظنه المستر ماليت ـ فقدمت له المذكرة ، وبينت له وجوه الخطر على الحرية من هذا القانون ، فوعدنى خيرا .

مد امتياز قناة السويس

وفى نفس السنة ـ ١٩٠٩ ـ أرادت شركة قنـاة السويس أن تمد امتيازها أربعين سنة جديدة مقـابل أربعة ملايين من الجنيهات تدفعها الى الحكومة المصرية ، وكان المستشار المالى يميل للأخذ بهذه الفكرة ، وكذلك « سير الدون غورست » وبطـرس غالى باشا ... فتحدثت فى ذلك الى حسين رشدى ، وسعد زغلول باشا ، فأحالانى على رئيس الوزارة بطرس باشا وعلى

المستشار المالى الانجليزى ، فذهبت الى المستشار ، واعترضت على المضى فى هذا الموضوع ، وطلبت منه عرضه على الجمعية العمومية ، وهى أكبر هيئة نيابية وقتئذ فى البلاد ، ولكننى لم أوفق لاجابة طلبى ، فتركته وذهبت الى رئيس الوزارة فى بيته بالفجالة فاستقبلنى بما كنت أعهده فيه من لطف وأدب ، وحدثته فى الامر ، وطلبت منه باسم حزب الامة أن تعرض مسألة امتياز قناة السويس على الجمعية العمومية ، فأجابنى بقوله : « يا لطفى أما تنزل من السحاب ، لنكون معا على الارض ؟! » .

وأبى أن يقتنع برأيى ، فتركته وسرت فى حملتى على هذا الموضوع . وبعد ذلك أظن أن شركة القناة اشترطت أخذ رأى الجمعية ، لما رأت من هياج الرأى العام ضد هذا المشروع .. فاستدعانى بالتليفون لاحضر عنده فى وزارة الخارجية ليلقى الى حديثا صحفيا فى مسألة القناة . وعلى ظنى : انه هو الحديث الوحيد الذى أخذته من وزير أو رئيس وزراء طول مدة اشتغالى بالصحافة .

ولما دخلت على بطرس باشا ، وجدت عنده فتحى زغلول باشا وكيل وزارة الحقانية ، فبادرنى بطرس باشا قائلا : « هأنذا أجيب طلبكم وأحيل الامر على الجمعية العموميه تقضى فيه بما تشاء » .

وكانت الجريدة هى أول من نشر هذا الخبر . وقد عرض الموضوع على الجمعية ، فقررت رفضه .

بعد ذلك فى سنة ١٩١٠ ، كنت فى منزل صديقى على شعراوى باشا ، ومعنا فتحى زغلول باشا ،وابراهيم

الهلباوى بك ، فدخل علينا بطرس باشا غالى بلا موعد سابق ولا استئذان ، لانه كان صديقا لشعراوى باشا ، فقال لنا : « علام تتآمرون ؟ .. » .

فقال الهلباوى بك « نتآمر على الحكومة ، لاننا نريد اثارة البلاد لطلب الدستور » .

فقال شعراوى باشا : « من أين جئت يا بطرس باشا ؟ » .

فأجاب : « كنت أتنزه ماشيا فى الجزيرة » فلامه شعراوى باشا على انه كان يسير بلا حرس ، فقال بطرس : « قد يكون معك الحق ، لانى تلقيت منذ أيام كتبا يهددنى فيها كاتبوها بالقتل .. ! » .

فقلت له : « يا باشا أظن أن الذى يريد أن يقتل لا يهدد .. ! » .

وقد أخطأت الظن لانه رحمه الله قتل بعد ذلك بأيام .. وكان لهذا الحادث رنة أسف بليغ ، وعلى الخصوص فى البيئات المتعلمة .

قضية الجريدة

قدمت أن الخديو عباس حلمى لم يكن راضيا عن شركة « الجريدة » ولا عن حزب الامة ، وان بطانته كانت تعارض « الجريدة » وتعمل لحل الشركة . وقد أفلحت هذه البطانة فى اقناع بعض الشركاء بالخروج على الشركة ، وطلب حلها سنة ١٩١٠ ثم رفع هذا البعض دعوى أمام المحكمة المختلطة طالبا هذا الحل . وقد دفعت مصاريف الدعوى ــ على ما علمت ــ من الخاصة الخديوية ، وأنعم على هؤلاء المدعين بالرتب . وكان المحامى الذى رفع الدعوى هو محامى الخاصة . فكتبت مذكرة بكل هذه

التصرفات وأعطيتها للأفوكاتو جرين المحامى عن الشركة.
وقد كان الامير حسين كامل (السلطان حسين) رئيسا لمجلس شورى القوانين وقتذاك فدعا محمـــود باشا سليمان ، وعلى شعراوى باشا ، وأنا ، ولما استقر بنا الجلوس ، قال الامير حسين : « أنا لا أفهم ترفعون دعوى على خديو البلاد ! » .

فقلت له : « يا أفندينا وأنا كذلك .. ولكن سمو الخديو هو الذى رفع علينا الدعوى » .

وما كدت أسرد له أدلتى حتى دخل علينا بطرس غالى باشا رئيس الحكومة ، واتفقنا فى المجلس على أن يطلب المدعون تأجيل الدعوى الى أجل غير مسمى .. وما زالت مؤجلة حتى الآن !

محاضرات فى " الجريدة »

وقد كانت صحيفة « الجريدة » عدا ما تقوم به من خدمة وطنية وسياسية تقوم برسالة ثقافية بين الشباب المتعلم ، فكان يؤم دارها كثير منهم للاســـــتماع الى محاضرات عدد من كبار الاساتذة والمحامين المصريين .
وقد اتفق وقتئذ ان ناظر مدرسة الحقوق الانجليزى ــ وكان أستاذ القانون المدنى بها ــ لم يكن من الحاصلين على شهادة الليسانس بل سقط فى امتحان الليسانس فى باريس ، فأخذت « الجريدة » تطالب الحكومة أن تستبدل به غيره ، فلم تجب الى طلبها ، فدعوت المرحوم الاستاذ أحمد عبد اللطيف ليدرس القانون المدنى للطلبة فى دار الجريدة ، فقبل هذه الدعوة ، وكان يؤم دروسه

الكثيرون . ومن تلامذته كامل البندارى باشا ، واحمد صديق باشا ، وغيرهما ..

وفى ذلك العام ــ عام ١٩١٠ ــ وضـع حرب الامة مشروعا للدستور ، وفكر فى أن يقدم للخديو عريضة من أهالى البلاد بطلب الدستور ، وقد حررت هـذه العريضة ، وأخذ الاهالى فى امضائها . وهنا لا أنسى مكرمة للمرحوم حسن باشا رضوان ، وكان وقتئذ مديرا للغربية ، فقد قابلته فى وزارة الداخلية ، وأسررت له الامر ، وطلبت اليه أن يغض الطرف عن هذا العمل الذى سنبتدىء به فى مديرية الغربية ، فأجابنى : « كلا .. لن أغض الطرف . بل سأساعد على امضاء العريضة من الاهالى .. ! » . وقد وفى هذا المدير الوطنى بوعده ! ..

الفصل السابع :

٤ رجال عرفتهم

حسن عاصم باشا

قبل أن تجمعنى الصداقة بالمرحوم حسن عاصم باشا، جمعنى العمل معه فى النيابة العمومية . وكان وقتئذ « أفوكاتو » عموميا .. عرفته رئيسا ، وعرفته صديقا ، ثم عرفته مستشارا ، ثم سر تشريفاتى لسمو الخديو عباس حلمى الثانى ، ثم رئيسا للديوان الخديوى . فما وجدت رجلا أظهر ثباتا على المبادىء ، وأقوى تمسكا بنهج الاستقامة من هذا الرجل . فمن عرفه عرف خلقا صريحا لا يتلون ، وسيرا قويما لا يعوج ، ومبادىء راسخة لا تتغير ، حتى لقد كان يرميه بعضهم بالتطرف ، وشدة التمسك بالحق ، ويعدون عليه جفاء فى الاخلاق ، وما به جفاء ، ولكن الطاعة للمبدأ كالطاعة لقائد الجيش فى ميدان القتال .

كان عاصم باشا رجلا أسمر اللون ، قصير القامة ، جذاب الطلعة ، مقتصدا فى حركاته عند الحديث ، جهورى الصوت يميل فى لبسه دائما الى السواد على طراز واحد ، وقورا فى ملبسه ، وقورا فى مجلسه ،

لا يخرج الا نادرا ، قليل الضحك كثير التبسم ويمتاز عن كثير من أمثاله بأنه لا يغلو فى ارضاء الناس بالقول ، ولا يعد بعمل ما لا يريد .

وقد اشتغل رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم لنيابة طنطا ، ثم مفتشا فى لجنة المراقبة ، ثم عين أفوكاتو عموميا ، وبقى منتدبا فى لجنة المراقبة ، فلما طلب اليه مظلوم باشا ناظر الحقـــانية وقتئذ والسير سكوب مستشارها ، أن يباشر عمله الجديد .. رفض الاشتغال بوظيفة الافوكاتو متى كانت خلوا من العمل الجدى ، لان مسيو لوجريل لم يكن يريد مشاركة غيره فى العمل ، فوعده الناظر والمستشار آن سيكون له عمل معين ، وانه لن يبقى الا بضعة أشهر ، ثم يعين نائبا عموميا بدل المسيو جريل .

ولكن الحال قد تبدل ، واتهم عاصم بأنه معاد للانجليز .. فأمر اللورد كرومر المستشار السير سكوت بفصله من وظيفة الافوكاتو العمومى ، وكان سكوت من العدالة فى الاخلاق بحيث يعز عليه تنفيذ هذا الامر فى حق رجل ، عرف هو والناس أجمعون مكانه من الفضـــل والعمل ، وموضعه من أصالة الرأى والاستقامة ، فكان المستشـار فى مركز حرج بين تنفيذ أمر المعتمد البريطانى ومعاملة عاصم بما يقتضيه العقل وتوجيه المصلحة من أن يرقيه ، كما وعده ، لا أن يفصله من سير ذنب . فبقى الامر بين البقاء والاقصاء .. كل هذا وعاصم يعمل بغيرته المعروفة وجده الزائد من غير أن يهتم بفصله أو ترقيته .

ومما يدل على ما كان له من علو فى النفس ، وقوة فى الخلق انه فى الفترة بين الفصل وعدمه وضع مشروعا

يقضي بنقل نحو خمسة وثلاثين كاتبا باليومية فى محكمة الاستئناف التى غصت بالكتبة الى المحاكم الابتدائية التى كانت فى أشد الحاجة الى الموظفين ، فدخل عليه باشكاتب المحكمة بخطاب نقل هذا الجم الغفير ، وقال له : « مالك ولهذا العمل ؟ والامر بفصلك تحت الختم » . فأجاب :

— انى لا أشتغل الا للأمة .. وما دمت فى وظيفتى ولم يصدر أمر فصلى ، فلا مندوحة عن القيام بواجباتى .

بقى أمر الفصل تحت التقديم الى مجلس النظار حتى وجدت وظيفة مستشار من الدرجة الثانية فى محكمة الاستئناف فعين فيها ، ولم يلبث فيها طويلا ، ثم عين سر تشريفاتى لسمو الخديو ، فوضع للتشريفات نظاما وقواعد . ثم رقى الى وظيفة رئيس الديوان الخديوى . وما لبث أن تغيرت ثقة سموه فيه من غير ذنب أتاه الا حب محافظته على مبادئه واخلاص النصح لسموه ، فقوبل على ذلك بالابعاد والاحالة الى المعاش .. ثم تفرغ لاعمال الجمعية الخيرية الاسلامية التى له من الفضل فى ايجادها وبقائها القسط الكبير .

أما مذهبه السياسى ، فكان رحمه الله يرى رأى حزب الامة ، ويعمل لنشر مبدئه ، وهو الاعتدال والدأب على أن تنال الامة الاعتراف بشخصيتها لتنال الاستقلال التام .

مصطفى كامل باشا

لا أريد أن أطيل القول في مصطفى كامل ، فحياته معروفة مشهورة .. ولكنى أقول موجزا :

ان مصطفى كامل كان شعاره الوطنية ، وسيلته الوطنية ، وغرضه الوطنية ، وكلماته الوطنية ، وكتابته الوطنية ، وحياته الوطنية ، حتى لبسها ولبسته ؛ فصار بينهما التلازم الذهنى والعرفى . فاذا ذكرت مصطفى كامل بخير ، فانما تطرى الوطنية . واذا قلت الوطنية فان اول ما يتمثل فى خيالك شخص مصطفى كامل .. كأنما هو والوطنية شيء واحد .. !

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته فى هذه المظاهرة التى لم نعرف لها فى ذلك الزمان مثيلا ، فقد اشترك جميع أفراد الامة فى امر واحد ، على راى واحد ، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه ..

كل هذا دل على ان الشعور الذى قادهم ليس مذهبا سياسيا ، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية ، بل هو أعلى من ذلك .. هو التضامن القومى ، والجامعة الوطنية .

ان مصطفى كامل كان تمثال الوطنية .. ولقد دعوت فى اليوم التالى لوفاته على صفحات الجريدة الى اقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله فى عمله ، وتخليدا

لذكره ، واعترافا من الامة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها ، وتجسد لهذه الروح الطاهرة .

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات ، وفتحنا الاكتتاب على صفحات « الجريدة » وتكلفنا بالقيام بهذا العمل ، ولو اننا لم نكن من حزبه السياسى ، لان مصطفى كان مصريا لجميع المصريين .

قاسم أمين بك

كان قاسم أمين من أصل كردى ، لان جده أمير من أمراء الاكراد ، أخذ ابنه رهينة فى الآستانة لخلاف كان بين الاكراد وبين الدولة العثمانية . وكان ذلك الرهينة هو المرحوم أمين بك والد قاسم بك ، فجىء بى الى مصر فى زمن اسماعيل باشا ، ودخل فى الجيش المصرى ، حتى رقى الى رتبة أميرالاى ، وتزوج بكريمة المرحوم احمد بك خطاب فكان أكبر أولاده قاسم .

ربى قاسم بك التربية المعتادة لامثاله فى مدارس الحكومة . وكان ممتازا دائما بجده وحدة ذهنه وقوة ذكائه . فلما أتم دراسته بمصر أرسل فى بعثة الى فرنسا ، فأتم دروس الحقوق ودخل خدمة الحكومة فى سنة ١٨٨٥ وكيلا للنائب العمومى فى محكمة مصر المختلطة ، ثم لم يبق بها غير عامين حتى عين مندوبا بقلم قضايا الحكومة بنظارة المالية ، ثم عين بعد أشهر رئيسا لنيابة بنى سويف ، ثم لنيابة طنطا ثم نائب قاض ، فمستشارا فى الاستئناف .

من يلم بهذا التاريخ المختصر لحياة قاسم ، يجده تاريخا عاديا غير مملوء بالعواصف التى تلازم عادة حياة كبار الرجال ، فيستفيدون منها قوة وشجاعة ، ويتعلمون من تجاربها مايجعلهم يفوقون غيرهم فى سلامة

الحكم على الحوادث .. ولكن على الرغم من ذلك ، كانت نفسه بطبيعتها مستعدة لان تتعلم وتكمل من الملاحظة الذاتية والتجارب .. فان قاسم قال :

« أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والاساتذة ، وأعظمها ما تعلمه من تجاربه الشخصية فى الاشياء والناس » .

كان قاسم بك اجتماعيا لا كبقية الاجتماعيين الذين يجعلون أدمغتهم محافظ لآراء الغير .. فاذا حضرتهم المناقشة ، أو دعتهم الكتابة الى موضوع اجتماعى ، أخذوا يسردون عليك محفوظاتهم من المؤلفين السابقين من غير أن يكون لعقلهم فى الموضوع نصيب من الرأى . لا .. لم يكن كذلك أبدا ، بل كان مفكرا بالاصالة ، نقادا لا يستغنى عن أفكار الغير ، ولكنه لا يعتنقها الا اذا اعتقدها ، وصارت له بما قام فى نفسه من الادلة اليقينية .

بحث قاسم أمين فى المسائل الاجتماعية على العموم ، فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية ، قوانين التحليل والتركيب ، والنمو التدريجى ، والانتقال

وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر على الخصوص ، فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ، ووجد ان المرأة هى الاساس الاول لبناء العائلة ، فأخذ يفكر كيف ترقى المرأة المصرية ، وأطال فى ذلك التفكير ، وأخذ يجمع قوته وعدته ليفك هذا الانسان الضعيف من سلاسل الاسر التى قيدته بها العادة ، وليهدم هذا السجن العميق الذى حبس الاستبداد فى غيابته عقول نصف المصريين ، وحجب ذلك الضوء الساطع ، ضوء

روح السيدة المصرية عن أن ينتشر بين سمائها الصافية وأرضها المخصبة انتشارا يضيء للرجال طريق السعادة المنزلية ، ويوصلهم من غير عنـــاء الى ذروة المجـد والاستقلال .

أجل .. ليفك أسر المرأة التى أوقعـوها فيه باسم الدين ، وما هو من الدين فى شيء ، فالدين أسمى مما يظنون ، فكتب كتاب « تحرير المرأة » ، ثم قفاه بكتاب « المرأة الجديدة » .. كتبهما فهد ركن سجنها ، وأضاء لها ظلمات الحياة المنزلية والزوجية ، وجعلها تحس أنها أم الرجل لها احترامه ، وأخته لها عطفه وحنـــانه ، وزوجه لها منه محبة لذاتها واعتباره لمركزها .. كمـا هدى الى ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعملون .

كتب فأجاد ، ولم يخش منتقدا ولا لائما ، ولم ينزله خوف الانتقاد عن فكرة من أفكاره ولا لفظ من ألفاظه .. ذلك لانه يعتقد اعتقادا كاملا بصحة ما كتب ، ويغريه الانتقاد فى حب البلاد بألا يعبأ بالانتقاص الذى وجه لشخصه ، بل صيره متينا فى رأيه ومكينا فى اعتقاده مجاهرا به فى كل يوم حتى ساعة وفاته .

أخذ قاسم على عاتقه حمل هذا العبء الثقيل .. عبء السعى بالمرأة المصرية الى نظام العائلة ، وبنظـام العائلة الى الرقى الاجتماعى المنشود ، وبهذا الاخير الى استقلال البلاد ..

وقد كان يربأ بنفسه عن أن يكون حاله كحال أولئك الاذكياء المجازفين الذين اذا ضم أحدهم مجلس طرحت فيه فكرة أو مناقشة ، انحدر انحدار السيل يفيض فى القول صوابا أو خطأ من غير تدبر كأن معانيه وألفاظه

لا قيمة لها فى نظره يجود بها اسرافا وتبذيرا . فأما قاسم ، فان كل من عرفه أو سمعه يتكلم أول ما يخطر في باله انه لم ينطق الا عن روية وفكره طويلة سابقة .. شأن الرجل المتحرج فى ذمته لا ينشر بين الناس الا ما قام له الدليل الواضح على صحته .

وان الذى يدرك معانى قاسم أمين . أو أغراضه ، وتوجهه بكليته الى العلم والفكر ، ربما يظن أنه ككثير من العلماء والمفكرين فاتر الطبع ، ساكن الاعصاب .. كلا ، لم يكن كذلك ، بل كان ملتهبا فى الدفاع عن دينه ووطنه ، بل ان بينه وبين الباقين بونا بعيدا فانهم اذا حضرتهم هذه الوطنية انفعلوا ، ولكنه اذا جاءته هو انفعل وانفجر انفعاله على قلمه ولسانه .

كتب « الدوق داركو » كتابا هجا فيه المصريين وأنحى على دينهم ، وسفه أحلامهم وقبح عاداتهم وأخلاقهم ، فانبرى له قاسم ، ووضع كتابا باللغة الفرنسية مكينا فى معناه ، ساحرا فى أسلوبه ، قويا فى تركيبه .. دفع فيه عن الدين الاسلامى التهم التى هو براء منها ، وقارن بين حال المسلمة وحقوقها فى الاسلام وبين حال المرأة الاوروبية المتمدنة ، فكان لهذا الكتاب صدى فى عالم الكتابة الاوروبية .

وقابلت قاسم أمين بعد وفاة المرحوم مصطفى كامل باشا فقال : « ما أنت وهذه الحركة القائمة ؟ » . قلت : « على ما قد قرأت » . قال : « انهم يقولون انك بالغت فى وصف الروح الوطنية ، وانك تعلق عليها آمالا ، وقد لا تكون صادقة » . قلت : « والله مااخترعت ، ولا بالغت فيما كتبت ، ولكنى رأيت رأى العين شعور التضامن يتجلى أمامى على رؤوس الناس فى الشوارع

والطرقات ، فما فعلت شيئا أكثر من انى أرسلت الالفاظ لتلبس هذا المعنى الطاهر وسطرتها على صفحات « الجريدة » .. وهل أنت تقول انى بالغت مع القائلين ؟ » .

فانبرى يقول : « انى أتهمك بالتقصير فى وصف هذه الحال الشريفة .. ولو كنت أخففت عليك فى الحكم ، لقلت أنك فى نظرى أميل الى التقصير فى هذا الموضوع منك الى الغلو والاغراق . ان هذا الشعور الوطنى الشريف .. هذا المولود الحديث الولادة الذى خرج من دم الامة وأعصابها . هذا هو الرجاء فى المستقبل .. هذا هو الذى يجب عليكم جميعا أن تباركوا عليه وتتعهدوه حتى يصير شابا .. هنالك تنالون الاستقلال » .

أحمد عرابى باشا

فى سنة ١٩١١ توفى أحمد عرابى باشا قائد الثورة العرابية التى نشبت سنة ١٨٨٢ ، أيام كنت صبيا فى العاشرة من عمرى . ولما كان غفر الله له من نوابغ المصريين وقد لعب دورا مهما فى تاريخ مصر ، أود أن أسجل رأيى فيه فى هذه المذكرات :

لقد كان مستقبل مصر طوع يدى هذا الرجل .. ان أصاب الفكرة ، وحزم الرأى ، وأتقن العمل ، جعله مستقبلا سعيدا .. وان عجل ولم يتدبر وانقاد لشهواته أو شهوات زملائه وقعت مصر فى التعـــاسة .. ومن نحس الطالع أن الذى جرى هو آخر الفرضين !

لعرابى حسنات قبل الثورة .. له حسنة رضيت عنها الامة وفرحت بها ، رضيها الخديو توفيق باشا ، وسار عليها العمل . تلك الحسنة الكبرى هى الدستور .. فالدستور المصرى من عمله ، ومن صنع يده ، ومن آثار جرأته . طلبه عرابى ، لا بوصف انه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف انه وكيل وكلته الامة فى ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من وجهاء الامة ومشايخها . فأما كون القوة العسكرية هى التى كانت الآلة لتنفيذ ارادة الامة فى ميدان عابدين ، فذلك ان لم يكن مشروعا قانونا ، فانه مشروع بتقاليد الامم ، لانه هكذا جرى

فى كثير من البلاد .. وكان القائد للحركة الدستورية فى كل بلد يحمل على الاكتـــاف ، ويهتف باسمه فى الشوارع والنوادي والمجالس ، فعرابى حقق آمال الامة بالدستور ، ولم يرتكب ذلك جريمة ، ولم يسفك دما ، بل كانت الحركة فى حقيقتها ســـلاما لابسا كســـوة عسكرية .

لا يجوز لنا أن يغمط حق الرجل فى انالتنا الدستور، بل يجب علينا أن نردد له ثناء آبائنا يوم صدر قانون الانتخاب ، وقانون مجلس النواب .. فان كانوا بعـد ذلك لم يستطيعوا حفظ مراكزهم ، أو اذا كانت انجلترا أغلقت المجلس ، وألغت قانونه يوم دخولها ، فذلك ليس من خطأ عرابى المباشر . ومع ذلك اذا كان فى أخريات الامر أو فى عهد الثورة لم يحترم استقلال المجلس ، وضغط عليه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد أن يحسب له كسب الدستور .

لعرابى سيئات بعد ذلك ، فيما يتعلق بخروجه على خديو هادىء من غير مصلحة عامة للأمة ، وفى عـدم تقديره حالة أمته من القوة والضعف تقديرا صحيحا ، وفى الجهل بالمقارنة بين قوته الحربية وقوة انجلترا ، وفى الانخداع ببعض المهيجين الانجليز ، وبكلمات بعض نوابهم الاحرار .

***

عرابى له حسنة كبرى ، وسيئة كبرى .. حسنة عمدية ، ومعظم سيئته خطأ وجهل .. فأما الخيانة ، فذلك أمر لا نعرفه فى زعمـــائنا المصريين المحسنين والمسيئين على السواء . وكان من شأن هذه السيئة التى

عوقب عليها أن تأكل الحسنة الاولى ، التى اسداها وهى الدستور . فيصبح بعد ذلك على الاقل انسانا لا له ولا عليه كبقية خلق الله . ولكن كان الامر على غير ذلك ، فان الرجل عاش فى منفاه مذموما عند قومه . فلما جاء من منفاه ، وهو شيخ أشيب ، لم يحترم له شىء من حسن نيته ، ولم يحفظ له شىء من تاريخه الطيب ، بل اتهم ضميره بالخيانة ولا يعلم الضمائر الا الله .

الرجل ما قابلته أبدا ولا جالسته مطلقا ، ولكنى أظن ان سوء مقابلته من أصحابه ومواطنيه غيرت قلبه ، وحطت من همته ، فأخذ يدافع عن نفسه بعض الاحيان دفاعا أقل تناسبا مع اسمه ومكانته ، ولا ينطبق على قائد كبير مثله قابله الدهر باليد العسراء ، وجعل الفشل قيدا لجهاده فى خدمة بلاده .

لا انكر ان عرابى أساء الى وطنه وامته ، ولكن يجب أن أسارع بأنه أساء غير قاصد اساءته .. اساء من حيث أراد أن يحسن ، واضر من حيث اراد أن ينفع ، فله ثواب النية وعليه مسئولية النتيجة .

نعم عليه مسئولية النتيجة .. ولكن ما اظنه منفردا بها ، لان الحكومة يجب ان تتحمل منها نصيبا أيضا ، ومجلس النواب يجب أن يتحمل منها نصيبا .. كل على قدره ، بل أعيان البلاد وتجارها يجب عليهم أن يتحملوا من المسئولية شيئا ..

يقولون ان عرابى أخافهم بحد السيف ، والواقع اننا

ما سمعنا ان رجلا واحدا قتله العرابيون ، لانه تنبأ بسوء العاقبة ، وأنذر وحذر ، ووقف لهم فى طريق الثورة موقف الخصم الالد .. فعرابى لا يصح أن يكون وحده هو المسئول عن جميع الاعمال التى كونت الثورة وأدت الى هذه النتيجة السوداء ...

الفصل الثامن :

رحلتي إلى أوربّا والى المدينة المنورة

فوائد السفر

في السفر ما يملأ العقل راحة ، والنفس رضا ، ويفرج عن القلب هما . وما أكثر هموم المصري . وكيف يرتاح ويسري عنه الهم والنظام الاجتماعي مختل ، والامة تشقى بأمراضها الثلاثة الفقر والجهل والمرض ، ومصر ما زالت محتلة بالاجنبي ، والحكم غير مستقر ؟!

في السفر ما ذكرت من الرضى ، ولكن فيه أيضا ما يميت القلب ، ويشغل الفهم اذا قارن المصري بين ما كان يراه في بلده من فشل الامة في حقها ، وبين ما يراه في غير مصر من ديمقراطية صحيحة كاملة ، فيها الفرد يساوي الفرد حقيقة ، ولا فضل لاحد على أحد الا بمقدار نفعه لقومه . وليس لاحد من السلطة الا ما أرادت الامة أن تعطيه لا هبة ولا مكافأة ، بل واجبا وفرضا يحاسب عليه حسابا عسيرا .

في السفر ما رويت في الحالين ، وكذلك في الحياة ، لا شيء الا يدور بين النفع والضرر ، ولا حال بين النعيم والشقاء .

ليس على أن أدخل للقارىء من باب الشـــعراء ، فأتكلف له وصف السماء وما تفعل الريح فى وجه الماء . ولكن على أن أنقل له الوقـــائع في رحلتى الى باريس سنة ١٩٠٩ كما رأيتها منذ نحو ثلاثة وخمسين عاما .

فى البحر كما فى البر الناس هم الناس ، لا ينزلون عن شيء من طبائعهم الاصلية ، ولا ما صار لهم بحكم العادة والتقاليد ، فاذا جاء الغروب نزلوا جميعا كل الى مخدعه ليمضي وقتا غير قليل فى تنظيف وجهــه وما علاه من غبار ، وفرق شعره ثم لبس السواد المعروف « بالاسموكن » للرجال ، وتلبس النساء خير ما لديهن ، وخيره واسع الطوق . وليس هذا عندى بمنتقد فى ذاته ، فما كانت النظافة اثما ، ولا التجميل عيبا ، ولكنى أرى بوجه عام أن فكرة الزينة تأخذ من الناس مأخذها حتى لقد يفضلها المرء على راحته ، ويغلو فى المحافظة عليها حتى أصبحت من حاجاته ، وما هى منها فى شيء . ولكن الغلو فى الزينة ، وارضاء شهوة التجمل بالعريض تجعل للانسان حاجيا ما ليس بحاجى ، فتزيد فى مقدار أسراره ، وتقوى حلقات القيود والعادات التى يربط بها نفسه فى هذه الحياة .

حكم العادة

اختلفت منا اثنان قال أحدهما : « ان العادة القومية هي جزء مهم من مقومات الفرد من حيث كونه فردا فى أمة معينة ، فالتنازل عن العادة هو تنازل عن احدى المقومات ، وليس من عادتنا أن نلبس ملابس خاصـــة للعشاء ، فما أنا بمغير ملابسى » .

قال الآخر : « انا بين قوم نعيش فيهم الآن ، فمن

اللياقة أن نشاكلهم فيما يصنعون بما لا يذهب بالمروءة او تحرمه العادات الشرقية . ولو أن لنا شركات ملاحة مصرية تنقل الناس من قارة الى قارة والتزمنا فيها عاداتنا لاتبعها الذين يركبون مراكبنا » .

على ذلك كانت أغلبيتنا نحن المصريين تتراوح فى العمل بين هذا الرأى وهذا الرأى ، أعجبنى هذا التسامح من الفريقين الا أن المبادىء التى يطرقها لنا العلماء والكتاب كل يوم لتكون لنا أصلا للسلوك فى هذه الحياة، قل أن تخلو من الخطأ ، بل من النادر جدا أن تخلو قاعدة عامة من الاستثناء والتخصيص . صدق الامام الشافعى اذ يقول : « ما من عام الا وخصص . حتى هذه القاعدة » !

وانى أسوق هذا الحديث لبيان ما استطرد اليه بحث المتناظرين من الاسف على فقدان ما كان لمصر من بحارة وبحرية لو كانت دامت وتبعت الرقى الزمنى لولدت كفاءات بحرية تكون مصدرا لتأسيس شركات الملاحة والنقل .

وصلنا الى « مرسيليا » ، فاذا هى هادئة على ما فيها من الاعتصاب الذى يدعو الى الاسف لما يسببه من الخسائر ، ولكنه من جهة يدعو الى الاعجاب بقوة التضامن بين عمال البحر ، وتضافرهم على الوصول الى حقهم مهما مسهم من جراء الاعتصاب من الفقر والعذاب .

وبعد ذلك وصلنا الى مدينة « ليون » مهد الجد والعمل ، وموطن الحرير وكثير من صنوف المصنوعات الفرنسية . وأهم ما لفت نظرى فى هذه المدينة هذه

المرة ملاحظة بسيطة جدا أجعلها أساسا للمقـــابلة بين ما تعمل حكومة الامة ، وما تعمل حكومة الفرد :

هذه المدينة العظيمة تتخللها جنات كثيرة فى معظم ميادينها .. بعضها صغير .. وان كان وارف الظل ، نافعا جدا ليكون ملعبا للأطفال آخر النهار ـ وبعضها كبير جدا « كالروضة الكبرى » . دخلت فى كثير من هذه الرياض الجميلة التى يظهر من تخطيطها وتقسيمها أنه يتفق لحفظها مبالغ طائلة ، فما رأيت على أبوابهـــا بوابا يعترضنى ، فيطالبنى بدفع رسم كما كان يقف بواب الازبكية يطالب الصغير والكبير والغنى والفقير بدفع رسم معلوم ! . ان حكومتنا غنية عن جمع رسم ضئيل .. مثل هذا الرسم لا ينفعها ، ولكنه يضر الفقراء ، وهم الاغلبية العظمى من الشعب ، الذين يحتاجون الى التمتع بالحدائق التى أنشئت من أموال الشعب .

ما كل باريس لهو

وصلت الى باريس . وفى هذه المدينة كثيرة من الاشياء غير أسباب اللهو ، ودواعى الطرب ، وميادين اللعب .. ولكن بعض كتاب الشرق قد اعتادوا أن يصفوا ما ظهر لاعينهم لاول وهلة فى شوارع الزينة دون ما بطن فى جوف المصانع الكبيرة والصغيرة من المخترعات ، وما امتلأت به معاهد العلم من التقريرات والبحوث فى العلوم والفنون . فما كل باريس لهو ، ولا عيب عليها فيما يرمونها . ولكن العيب على من يكتفي من النظر الى الاشياء بلمحة ، وفى الحكم عليها بمسحة من الظاهر .

كذلك كان يصنع بعض كتابنا ، وكذلك كان يطبق أغلب كتاب الغرب علينا الحكم بالظواهر وقد يكون ذلك بغلو ويبعد عن حدود المعقـول ، ويقرب سياحاتهم من قصص ألف ليلة وليلة : يتفق لاحدهم أن يرى جماعة يصلون على النبى، فينقل عن مصر أن معبودها « محمد بن عبد الله » !

***

لا يظننى القارىء اننى قد وقعت من المبالغة فيما احذر منه ، ولكن بين يدى كتاب من صديق فرنسى جاء فيه انه قابل انـكليزيا على ظهر البـاخرة انتقل بهمـا الحديث من موضوع الى موضوع حتى وصل العرب .

قال الانكليزى وأكد تأكيد ذى الرابطة بين قومه وبين العرب : « ان العرب يعبدون الشمس !! » .
واستدل على ذلك بأنهم يصلون لها عند الشروق وعند الغروب .. !

وزارتنى فى باريس سيدة تشتغل بتحضير محاضرة عن وصف مصر ، ومن جملة ما أشكل عليها من المسائل الاجتماعية بل المسائل المتعلقة بتحـــديد مركز مصر السياسى ، هو : كيف أن النساء المصريات محجوبات عن الرجال غير المحارم ، ومع ذلك فانهن غير محجوبات عن الخدم والاتبـــاع الذين هم بالضرورة أجانب عنهن ؟ واستنتجت فكرتها هذه من كونها رأت فى أبواب البيوت المصرية وأفنيتها رجالا يروحون ويغدون . ولمـا لم تـكن تدخل الى باطن البيوت لتعرف ان هناك « حرملكا » خدمة نساء ، و « سلاملكا » خدمه رجال فقد حكمت حكمها على الظاهر .

أنظر كيف كان يجنى الظـاهر على امانة النقل وعلى الناس فى الحكم .. لا أنكر ان السائح من مشارق الارض أو مغاربها اذا سألته عن قصده وكان من أهل اللهو أجابك أنه يقصد باريس . ولكنى لا أنكر أيضا أن السائح يأتى من اليابان والصين وغيرهما ليتتلمذ على اساتذة باريس ، ويعرف منهم أسرار الحكمة وقواعـد الحق والواجب وسبيل الاقتصاد .

أجل ان باريس تؤخذ عنها مودة الازياء ، ولـكنها تؤخذ عنها أيضا أسعار البورصة فى جميع أنحــــاء العالم . واذا كانت الاولمب ، والمولان روج وما بينهما من محلات اللهو ، فانها مدينة السوربون والكليات ، ومدينة التجارة والصناعات .

ولئن اشتهرت بجمال النساء وتبرجهن ، فقد اشتهرت أيضا بكاتباتها الفضليات . ولا يغرنك خفة روح الباريسى وميله الى النكات والمزاح فان فى نفسه ذكاء يتأجج لتحصيل العلم والنبوغ فيه .

ولا يدلك على ذلك أكثر من أن باريس تملك شهرتها هذه من مئات من السنين ، فلم يتقلص مجدها ، ولم تسبقها غيرها من المدائن الى صفتها الجامعة بين دواعى الجد ودواعى الهزل .

***

وقد زرت باريس فى سنة ١٨٩٦ و ٩٧ و ١٩٠٦ وفى غير هذه المرات .. ويهمنى أن أشير هنا أننى كنت فى أول مرة زرت فيها هذه المدينة اختلط بطلبتنا المصريين وأناقشهم وأتحرى معلوماتهم واستمع على حالة أخلاقهم وسلوكهم الشخصى من مخالطيهم . واشهد انى وجدتهم هذه المرة أكثر اقبالا على العلم واشد اقتناعا بالمسئولية التى يحملونها أمام ضمائرهم وأهليهم وأمتهم .

آنست منهم أنهم يعلمون جيدا أنهم ما جاواء باريس الا لينقلوا العلم الى القاهرة ، وما تغربوا عن أوطانهم الا ليشرفوها ويجعلوها قوية محترمة . لمحت فى وجوههم آمالا كبارا من حيث نشر العلم فى مصر وزرع المبادىء العالية فى بقاعها الخصبة . وأقل هومهم فيما يحاولون المسألة السياسية . لذلك عجبت من مقدار جهل حكامنا فى ذلك الزمان يسير هؤلاء الطلبة الراشدين ، وكيف كانوا يظنون أن طلب العلم بباريس بركان الهياج والقلاقل، وما هو الا خير ونور وسلام .

الانجليز فى بلادهم

سافرت الى لندرة وأنا لا أعرف من الانجليزية ما يكفى لاستبقاء أبسط الاحاديث موضوعا ، ولكنى مع ذلك كنت معتمدا على أن اللغة الفرنسية معروفة هناك فى كثير من الطبقات خصوصا طبقة الـكتاب والطبقة التى لا غنى للسائح عن محادثتها ، فان أمثالهم فى الفنـادق الـكبرى يتكلمون لغتين أو ثلاثا احداها الفرنسية . وكان يذهب عنى الحيرة بعد ذلك أن لى فى لندرة وغيرها من المدن الانجليزية أصدقاء من المصريين .

فلما كنا فى كاليه الميناء الفرنسية انقلبت الحال فجأة حتى أن الحمالين الفرنسيين أخـذوا يخاطبوننا باللغـة الانجليزية ، وكانت الفرنسية قد غسلت من الوجود على شاطىء المانش ، فشق ذلك على رجل فرنسى كان معى فى العربة . وقد قال للحمال الذى بادرنا بالايجليزية : « نحن نعرف من الفرنسية ما يكفينا للحديث عند الضرورة » . قالها ساخرا معنفا هذا الحمال الذى يعدل عن لغته لغير ضرورة ، فانقلب الحمال بفضل هذه الجملة فرنسيا يفهمنا ونفهمه .

وقـد ذكرنى ذلك ببعض المصريين الذين يتـكلمون الفرنسية أو الانجليزية بينهم فى بلادهم وما هم بذلك بمحتقرى لغتهم ، ولكنهم يتراطنون باللغة الاجنبية حتى يظنهم سامعهم أنهم قليلو الاعتداد بلغتهم وقوميتهم .

فرغنا من الحمال بهذه الملاحظة ، ودخلنا السفينة التى تجوز بنا المانش الى دوفر .. فأذكر أننى رأيت فى الركب رجلا هنديا يجتنب الناس ، ويقترب منى . وكان كلانا يشعر بجاذبية نحو الآخر . ولم يكن فى المركب من اللون الاسمر سوانا .. وكفى بالتقارب فى اللون ، وبالشرقية جامعا بيننا نحن الاثنين . وكانت حادثة الشاب الهندى « دنجرا » الذى قتل السير كورزون فى لندرة جديدة العهد وقتذاك ، فوقع فى نفسى أنى سأشارك جارى الهندى فى استقبال النظر الشزر من الانجليز الذين اشتهروا فى العالم بأنانيتهم حتى اضطر حكيمهم « هوبز » الى أن يقول .. ان أصل الخير والشر فى هذا العالم هو حب الذات ، وانه هو أساس علم الاخلاق عنده . كما اشتهروا بالتضامن الشديد وحبهم لكبار رجالهم مثل سير كورزون القتيل .

عولت على ألا أبعد عن جارى الهندى وقلت فى نفسى : « ان عادة المصرى أن يكون ضحية لغيره . وما كانت بلادنا أيضا الا ضحية يضحى بها على مصالحه القوى » ! .. اللانجليز مصلحة فى أقرب طريق الى الهند ، فماذا جنت مصر حتى تكون هى الضحية لتلك المصلحة ، فقد قال احد ساستهم يوم فتح قناة السويس :

« الآن لزم احتلال مصر » .

وقد كان .. وعلى هذا القياس كان أمر بلادنا الجميلة الخصبة فى التاريخ القديم .. لما ذكرت ذلك ذكرت أنى من قوم هم ضحايا الكرم والصبر . توقعت أن يضايقنى الانجليز بصفتى هنديا مع صاحبى الهندى .

ولكن لم يكن مما توقعت شيء ، فلم أر أحدا بأن عليه أثر لما قد ظننت من تأففهم لرؤية الهندى ، فأكبرت أخلاقهم . غير اني لما خرجت بعد ذلك الى البر . وكان يوم المرافعة فى قضية الهندى صرت أسمع نقلا عن المجالس صحة ما كنت أظن .. فان الهنود كانوا مضايقين من البوليس السرى ، وان كثيرا من الانجليز كانوا يكررون ما قاله بعض كبرائهم ان طرائق التربية الغربية ـ تربية الحرية والعلم ـ مفسدة للشرقيين ، وانه لابد لصلاحهم (يعنون بالصلاح .. رضاهم عن حكم الغربى فيهم وتسلطه على بلادهم) تركهم على ما هم عليه، فان ذلك خير طريق لسعادتهم أو (دوام استعمار الاوروبيين لبلادهم) .. !!

امة صنعت مجدها

وجست خلال انجلترا . وكان اطول ما قطعت مسافة من لندرة الى ليفربول . يمر القطار فيها بقرى ومدائن لا يدل منظرها على حب الشذوذ ، ولا على الابتكار الذى اخذ من فكرة الاوروبيين مأخذا عظيما حتى صار مقياسا لشخصية الفرد وعلامة على النبوغ ، فان الكاتب الذى لا يولد لغته أسلوبا جديدا لا يعد كاتبا . وكذلك الشاعر الذى لا يأخذ خياله من الطبيعة أفكارا حديثة ومقاصد ابكارا لا يعد شاعرا عاديا . كذلك لا يلفت النظر الى الشيء الا غرابته وجدته ، ولكن على الرغم من ذلك رأيت المدن والقرى الانجليزية وقتئذ متشابهة جدا فى تخطيط الشوارع وارتفاع الابنية والوانها حتى كان يخيل للرائى انها بنيت على فكرة المحافظة .. او فى حكومة المحافظين

على أن الفرد الانجليزى فى فكره وعمله مبتكر طبعا او كما يسميه أوربيو القارة « أوريجينال » .

مر بنا القطار بغير المدائن .. مر بحقول جميلة فسيحة قليلة الغلة معظمها كلأ ترعاه الانعام ، والقليل مزروع حنطة ، والاقل منه مزروع خضر وفواكه . فخطر فى نفسى لمشهد هذه الارض القليلة الغلة كيف أن الانجليز بهذه الارض أغنياء ؟

خطر لى هذا الخاطر السريع غير الناضج لانى فلاح من قوم كل ثروتهم مما تنبت الارض ، ولم البث ان لحظت موارد الثروة الانجليزية الطـائلة من الصناعة التى كنا نحن المصريين نحتقرها بعض الشىء ، والتجارة التى كنا نأباها بعض الشىء - بسمت لهذا الخاطر ، وذكرت ذلك المثرى المصرى الذى كان لا يجلس اليه احد الا ساله : كم فدانا يملك ؟. او كم فدانا من القطن يزرع هذا العام ؟. وأمثال ذلك مما يشف عن فكرته فى أن قيمة الرجل فى ثروته ، وان كل الثروة هو ما يملك من الارض وما يزرع فيها من القطن ، فلقد كان مثلى مثل ذلك المثرى المصرى ، وذهلت عن حقيقة اجتماعية من اكبر الحقائق وهى :

ان غنى الامة وسعادتها ليسا فى خصب أرضها ولا فى صفاء جوها ، واعتدال منطقتها ، وليس بضـــخامة مدائنها ، بل بمقدار عدد المهذبين من أبنائها ، فهم الذين يبنون مجدها ، وهم الذين يخلقون غنـاها .. نعم اذا أعوزتها خصوبة الارض خلقوا لامتهم بعقولهم وعلمهم من الصناعة والتجـارة والاعتماد على الذات والمخاطرة فى سبيل المنفعة ثروة تفوق الثروة الزراعية اضعافا ومجدا طارفا لا يطاوله المجد التليد .

تمثال نلسون

دخلت لندرة ، وأول ما يلفت النظر فيها تمثال نلسون، تمثال أقيم على قاعدة عالية جدا على غير المألوف بحيث لا يطاوله فى مكانه الرفيع تمثال أمير من الامراء أو ملك من الملوك ، فان رءوس أولئك مهما علت لا تطول ربع القاعدة التى يقف عليها نلسون بقدميه . أجل انه كان فى الحياة رجلا عاليا ، فأعلى قومه مكانته فى الممات على كل من عداه .

كذلك يجل الانجليز رجالهم ما دامت أعمالهم تشرفهم وترفع أقدارهم على أقدار الذين نالوا الشرف بمجـرد الميلاد .

لا يغشى السائح مجلسا من مجالس السمر فى الادب الا ترى الانجليز يتحـدثون عن شاعرهم شكسبير بلسان الفخر ، والاجلال والاحترام . ترى تمثاله فى المتـاحف وتسمع ذكره فى الاندية ، وتشهد رواياته على المسارح ، ولم يمنعه أنه كان ممثلا من أن يكون فى قلوب الانجليز أعلى مكانة من ملوكهم الاولين .

هيدبارك والازبكية

فى أبناء الانجليز عادات تأصلت فى نفوسهم ، وصارت لهم أخلاقا ، أزعم أنها هى وحدها السبب فى قوتهم ـ تلك القوة المستفادة من جدهم فى العمل وتقديسهم لمعنى الواجب . ومن أخص ما لا حظت من تلك الصفات حرية القول والاستماع لكل قائل من غير أن يصادر أحد حريته. من ذلك انى رأيت خطبـاء كثيرين يخطبون فى حديقة « هايدبارك » بعضهم واقف على الارض ، وبعضهم يعلو

منبرا متنقلا .. منهم الشيخ ومنهم الشاب ، بعضهم على مقربة من بعض حتى نقدت عليهم سوء اختيارهم لهذه المزاحمة المادية للمكان ، والمسرح فسيح الارجاء لا يضيق بآلاف الخطباء . وتمر جماهير الناس بهؤلاء الخطباء ، ويقف كل واحد منهم على الخطيب الذى يعجبه ، فيصفق له مع المصفقين .

ليس الهايدبارك هذا منبرا خاصا بأولئك الخطباء العاديين الذين قد يبدأ الواحد منهم خطابته على فرد أو فردين أو ثلاثة ، بل هو ايضا منبر عام لكبار الساسة والخطباء المفوهين ، فقد كان غلادستون كلما ضاقت قاعة البرلمان بصوته العالى واغراضه الكبيرة عمد الى هذه الروضة العامة يخطب فيها الالوف من الناس ساعات متوالية فيحول الامة من فكرة الى فكرة .. ويخرجها من مقصد الى مقصد . وكذلك كان « كرهاردى » ونحوه من خطباء الانجليز الى اليوم يخطبون فى الناس من غير ملاحظة رسوم أو نظام أو اشتراط دعوة حتى تكون الامة واقفة بواسطة هذه الالسن الرسمية على أحوال الحكومة ، فلا يفوت فردا من الافراد اى مقصد من المقاصد الكبيرة للحكومة ، كاعلان حرب أو سلم ، أو تقريب بين أمتهم وامة أخرى أو ضرب ضريبة عامة ، أو اعطاء النساء حق الانتخاب بحيث أن العامل البسيط فى لندن يعرف من خطب الوزراء والنواب فى « الهايدبارك » طرفا أو نتفا من قواعد مصالح الامة التى مصلحته الشخصية بعض منها ، ولكن كان وزراؤنا ونوابنا ــ سامحهم الله ــ يجتنبون الكلام حتى فى سياستنا الداخلية الا ما يكون من التهامس فى الآذان فى الخلوات والنوادى بينهم وبين اخصائهم الاقربين .

هذا كله اذا عرفوا جليا مقصد الانجليز او مقصد السراى فى مشروع من المشروعات . فهل منهم من يقف يوم الجمعة فى حديقة الازبكية فيبين للنـاس مقاصد الحكومة فى أى أمر من الامور العامة ؟

كلا ان رجال حكومتنا لم يكن يهمهم ايقاف الامة على مشروع أو اقناعها برأى أو فكرة ولكن الذى كان يهمهم أن يكسبوا من مجلس الشورى كل مشروع يريدونه بأية طريق .

اذا كانت أمتنا ليست كأمة الانجليز ، فان من وزرائنا من تعلموا مع وزراء الانجليز فى مدرسة واحدة ، فهل من رأيهم أيضا أن « الشرق شرق والفرب غرب » ؟ .. أم هم فى القربى من الامة لوزراء الانجليز .. زملائهم فى المدنية الحديثة .. مقلدون ؟

الى المدينة المنورة

فى سنة ١٩١١ وقبيل الحرب التركية الايطالية بليبيا سافرت مع أبى الى المدينة المنورة . وان نسيت لم أنس وقفتى فى مكتبى لوداع ولدى . اذ وقف كلاهمـا على كرسى ليستطيع عناقى من غير كلفة على هواه . ولن انكر على الرجل أن يصف المشاهد التافهة العادية التى تقع لجميع الناس ، فانى من الذين يعطون المقـام الاول لمشاعر الحنان بين الآباء والابناء . وآلام الفراق والشوق الى التلاقى وحب الاوطان ، والميل الى مسامرة الاشياء ومودة الاقرباء والاصدقاء ، ورحمـة الفقراء ، ومواساة الضعفاء ، ومدراة السفهاء ، واحترام الكبراء .. تعجبنى روايات هذه المشاعر . ولا أجد حقـا للذين يحتقرونهـا بجانب مشاعر البسالة ووصف آثار القدرة والشجاعة ، ومآزق الخوف والفزع والصفات الاستثنائية التى لا تتفق الا لعدد محدود جدا من بنى آدم لا يخطئهم العد . وان الناس لمعذورون فى الولع بقصص مشاعر البسالة لانها غير عادية . وقليل أن يجد المرء فى العادة لذة . ولكن تلك المشاعر العامية المتواضعة لا ذنب لها الا أنها عادية ، وان كانت فى الحقيقة هى المؤلفة لحياتنا اليومية ، وهى التى بها ، ولها نحيا ونحب الحياة .

فما أنس لا انس وقفة وداع ابنى ، اذ ينظر اكبرهما

الى بملء عينيه مفتوحتين جامدتين ، يسـألنى كم يوما أغيب فى هذه السياحة ، فأجبته ثلاثين ، فاذا انا بابنتى الصغرى وهى لا تجهل عد الايام تجول فى عينيها قطرات الدمع ، فقلت لا بل شهرا واحدا . ولولا أنى كنت عزمت نهائيا على السفر وارتبطت به لأرجأته الى أن يعتاد ولداى على خبره فيخف عليهما أمره ، لانه كان فجائيا لا يعلمانه الا يوم سفرى .. تركتهما ولا شـغل لى فى الساعات التالية الا تدبر هذا الشعور واستقصاء أصله فى نفس الحى ، ومقدار فـائدة الطبيعة من ايجـاده فى قلوبنا الضعيفة .

جعلت أتساءل : كيف يغفل والد عن ولده المحبوب بهذا المقدار ، فيتركه فى معترك الحياة البشرية أعزل لا سلاح له من العلم والتربية ؟ عجيب لرجل يحب ولده حبا جما، فيجعل حبـه وقفا على ما يضره دون ما ينفعه . يأمره بالكذب لتحصيل خير مزعوم أو دفع شر موهوم ، والكذب مهلكة ، يطبعه على الملق والرياء والنفاق ، وكلها مهالك . يضرب له بفعله شر الامثال من الاستهانة بالكرامة وحب البقاء الى حد الجبن ، والتبرم بالعهود الى حد اللؤم . فأخلق بهذا الحب الابوى أن يسمى « الكره الابوى » .

أبناؤنا أجزاؤنا وصنع أيدينا . هم بررة اذا أردنا ، وهم على ما عودناهم . والمرء أسير عاداته . انهم ان قست قلوبهم ، وفسدت طبـاعهم وكسـدت عقولهم ، فالمسـئولية فى ذلك على ما أورثناهم اياه فى دمائهم وأمزجتهم ، وما دعوناهم اياه بعد ذلك من انتهاك حرمات الفضيلة ، وما قصرنا عنه من تصحيح عقولهم بتعليم العـلم . واذا نحن تدبرنا وتحرينا الاصـلح لمستقبلهم ،

فربيناهم على الفضيلة ، وصححنا بالعلم أحـكامهم على الاشياء ، وهذبنا أذواقهم ، وقوينا فى نفوسهم ملكة الاخذ عن الغير وملكة الفهم وملكة الانتاج ، أخرجناهم الى الحياة العملية مسلحين يغلبون ولا يغلبون .

ما أنس لا أنس تلك الوقفة وذكراها! يثيرها فى نفسى نداء الصغار « يا بابا » و « يا أبى » و « يا أباه » تبعا للهجات البلاد ، فأشعر بفيض من الحنان لا يدع لغيره من المشاعر محلا من قلبى الى أن أرجع النظر فى هذه الحقيقة المعنوية الحسية معا ، فلا أفهم معنى ولا أرى وجهـا لاولئك الذين يدعون الله لانفسهم أو عليها بالعقم أو بقلة الولد لانهم يخافون الاملاق ، وما يتمنونه أقبح من الاملاق . وما ضر أحدهم أن يبقى فقيرا بماله غنيا بولده . فيا طالما كان الولد قرة العين ومدفع الفقر ومناطق الراحة والهناء ، أو ليس من الحمق أن يخشى الفقير كثـرة الولد ليخسر زينة الحيـــاة الدنيا بطرفيها : المال والبنين ؟! ذلك هو الخسران المبين .

من هؤلاء أيضا المتفلسفة المتطيرون الذين يأخذون على ظاهرة قول ملك المفكرين أبى العـلاء المعرى . يجأرون بالشكوى من سوء العيش ، يغلون فى تقـدير متاعب الزواج ، ويجبنون على احتمال العناية بالاولاد ، ويفضلون الرهبنة والعقم لا خوفا من الفقر ، ولا فرارا من الذل ، بل حرصا على راحتهم وارضاء لانانيتهم . يأخـذون من الوجود ولا يعطون ، يستدينون ولا يؤدون . كأنى بأولئك لا يرون الولد الا ثمرة لذة طائفة ، ولا يشعرون بمكانة الابوة وطهارتها ولذتها التى لا تعدلها لذة عند الذين أوتوا

قلوبا تعرف أن تحب ، وصـــدروا رحبة تسع اللذائذ والآلام على السواء ، ونفوسا كبيرة تستحى أن تكون مدينة للوجود لا دائنة ، مستهلكة غير منتجة . وألئك هم الآباء الاكفاء لشرف الابوة ، وأولئك هم أسعد الانسانية الاكرمون .

فى مقام الرسول (ص)

ولا أريد فى الحديث عن زيارتى للمدينة المنورة أن أتصدى لوصف معاهدها قديمها وحديثها ولا أخوض فى وصف الحرم المدنى والحجرة الشريفة ، ولا أنقل طرفا من العادات ، لانى اذا فعلت لا أكون الا مكررا لما ذكره الاستاذ الفاضل لبيب البتانونى فى رحلته المعروفة .. غير أنى أنقل هنا بعض ما شعرت به نفسى فى مقـــام الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، فأقول :

متى خرج المسافر من « تبوك » مستقبلا الحجاز ، موجها وجهه نحو المدينة موطن الهجرة ، ومهبط الوحى، ومقام الرسول (ص) ، تنفعل نفسه انفعالات شتى ، مرجعها الى طبيعة الارض التى يمر فيها من « تبوك » الى مدائن صالح الى المدينة المنورة . ســـهول قليلة مجدبة ، وجبـــال كثيرة جرد مختلف ألوانها ، لا ترى عليها شجرا قائما ، ولا نابتا ، ولا طائرا ، ولا شىء الا الفضاء والسكون . منها جبال حمر وسود وزرق ضاربة الى الخضرة كلها موحشة لا يأنسها الا محطة السكة الحديد المسافة بعد المسافة . ان تجردت عن جمـــال الطبيعة المعروف لدينا ، والمصطلح عليه بيننا ، كجنات دمشق ، أو مزارع سهل البقاع ، أو مختلف مناظر لبنان ، فقد بقى لها من الطبيعة جلالها . ولا شك فى أن الجلال قد

يكون له فى النفس ما يفضل أثر الجمال . تعطيك هـذه الطبيعة الجرداء المهيبة اكبار الصعوبات التى لاقاها النبى العربى محمد بن عبد الله فى سبيل القيام بتبليغ رسالته فى هذه المناطق المترامية الاطراف العديمة الماء ، النادرة العشب ، الكثيرة الاوعار والجبال . فاذا وصلت الى مدخل المدينة تكتنفها الجبال ، ولحظت على الشمال دار عثمان بن عفان ، ثم رأيت مقام سيدنا حمزة تحت جبل أحد ، على قرب من مصرعه ، ثم أشرفت على المدينة ورأيت القبة الخضراء المضروبة فوق مقام المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ثار فى نفسك ثائر ذكرى ذلك المجـد العربى القديم ، وأشرق على روحك نور تلك المبـادىء الشريفة التى كان هـذا الحرم مهدها ، ومصدر تشععها على أطراف العالم من أقصاه الى أقصاه . هنالك تعذر الذين يقولون : رأينا النور من المدينة فوق القبة الخضراء يشق طبقات الهواء الى السماء . لم نر ذلك النور الحسى بالعين الباصرة ، ولكن هناك نورا لا يحتاج فى انبعاثه الى هواء يحرك ذراته وينقلها ، ولا الى أجسام ينعكس عليها نور العلم والفضل ، نورى الهدى . انهم لا يرون نورا حسيا كما يقال وكأنهم يرون نور الهدى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا انك على كل شىء قدير .

دخلنا الحرم المدنى لاول مرة من باب السلام فى زحام الزائرين مختلفى اللغات والالوان والازياء والاجناس ، دخلنا ذلك الفناء الرحب ، فناء الرجل العظيم ، والنبى الكريم ، والرسول الامين ، فما هى الا نظرة الى ما نحن فيه ، وتذكرة لما مضى من الاثر حتى يمتلىء القلب هيبة من الحضرة العالية ، ويأخذ النفس الخضوع حتى يبتل

الجبين عرقا من الوقوف أمام مقام من لا يطاوله فى مجده مطاول ، ولا يضارعه فى مقامه واحد من بنى حواء . فكلهم لديه سواء ، مغترف من بحر علمه ، ومستنير بهديه ، أو معترف له بسؤدده ورفعة مقامه . فالذين آمنوا بمحمد وما أنزل عليه ، يرونه بحق سيد الخلق على الاطلاق ، والذين لم يؤمنوا ، لا يجادلون فى انه الرجل كل الرجل فضلا وكرما . والشارع الحكيم أحاط بالعظائم والدقائق من أحوال الناس ، والشجاع عديم المثال . هاجر الى المدينة وهو لا يملك من الدنيا الا نفسه وصحبة صديقه وهو على هذه الحال ، وفى تلك البلاد المجدبة وبين الاعراب ألد الخصام . على هذه الحال قد أخاف الاكاسرة والجبابرة أصحاب الاموال والعروش والجنود أولى القوة بكل أسبابها ومظاهرها . ولم يكن له مما فى أيديهم شىء ، ولكن الله آتاه العلم والحكمة والنبوة والرسالة ، فكان له النصر ، وما النصر الا من عند الله .

فمن ذا الذى يعرف تقدير النسب بين الاشخاص والاشياء ، ثم يزور قبر محمد ، ولا تخضع نفسه لهيبته ، أو لا يقصيه الادب عن مس المقصورة أو اطالة المكث على مقربة منها ، الا على نحو ما يصنع فقيه المسلمين عبد الله بن عمر ، اذ كان يعقل بعيره فى خارج الحرم ، ثم يدخل فيقول : السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبى . ثم يقفل راجعا من حيث أتى .. ! على أنى مع ذلك أجد عذرا لهؤلاء العوام الذين يقتربون من الحجرة ، ويخرون على الاعتاب للأذقان سجدا . ثم يتمسحون بقوائمها ، ويدخلون

شفاههم من الشباك يسرون كلاما طويلا أو قصيرا . فان المحبة قد تجب كل ما عداها من الملكات فى تلك العقول ، التى نمت فى أحضان القلوب لا فى أحضان العلوم فيذهلون عن تقدير النسب ، ويجاوزون حدود اللياقة . ومع ذلك فان من الاعراب من لاحظت من هيئتهم الوقوف عند حدود التأدب ، سواء كان ذلك فى زيارة قبر الرسول ، أو فى زيارة الشهداء .

من ذلك أننا زرنا نحن وأصحابنا مقام سيدنا حمزة صبح يوم زيارته . فلما فرغنا من زيارتنا وقطعنا ميدانا فسيحا من الرمل ، حيث كانت عرباتنا تنتظرنا فى الجهة المقابلة ، اذا بنا نرى الاعراب زمرا راكبين جمالهم حاملين أسلحتهم ، كلهم يعلق فى كتفه بندقية ، ويشد فى وسطه خراطيش رصاص وقد يكون الى جانبه غدارة أو خنجر ، وسيفه الى جانبه . مع ذلك كله وقفنا ننظر ماذا يفعلون ، فاذا هم يفدون من المدينة جماعة جماعة، ينتظر بعضهم بعضا فى ذلك الميدان الفسيح تحت مسجد سيدى حمزة حتى كملوا أربعمائة هجان وقفوا وأمامهم علم أخضر يظل رجلا منهم هو خليفة السنوسى فى مكة والحادى يحدو لهم شعرا بصوت جميل ، وهم يردون عليه هذين البيتين :

سيدى حمزة وياعم الرسول　　قد أتينا فى حماك
نرتجى منك الشفاعة والقبول　　لا تخيب من أتاك

يردد هذا الجمع الكبير هذين البيتين فى آن واحد على نغمة ما أجملها ، فما علمت غناء فى مثل هذا الظرف أشجى نغمة ولا آخذ بالقلب من هذا الغناء الذى سمعته . يفعلون ذلك على بعد من المسجد تحية القدوم ، ثم

يترجلون فيدخلون للزيارة . وسألت عنهم .. فقيل لى أن الخليفة السنوسى حضر من مكة للزيارة فى هـذا الموسم ، مولد سيدى حمزة ، وليلة المعراج .. فلا يحل بأرض قبيلة من قبائل الطرق الا دعوة للاســـتراحة عندهم ، ثم يتبعه من مريديه جماعة ، فلا يصل المدينة الا وهو فى مثل هـذا الجيش من العربان المسلحين من تلاميذ الطريقة السنوسية . ياالله ، ما أفعل الاعتقاد فى القلوب ، وما أقرب البدوى من السير وراء اعتقاده .

على هذا الحرم الشريف تخيم السكينة ، فتزيده هيبة على هيبته ، ووقارا على وقاره . ومع أنه غاص دائمـا بالناس من مختلفى الاجناس .. لا تسمع فيه صوتا فيما بين أوقات الصلاة الا تقريرات المدرسين فى زوايا الحرم، وحفيف الحمائم تنتقل من الحصباء الى ذرى الحرم ، لا يهولها كثرة الناس ، فهى فى غاية الانس ، لا تعرف كيف يهاج الطائر ، ولا تتصور الوقوع فى حبـــائل الصيادين ، نواعم لا تعرف بؤس العيش ، آمنة لا يأتيها فيما حرمه النبى خوف ، فانه حرم من دخله كان آمنا ، فاذا جاء وقت الصلاة انقلب السكون ضجة ، وهرع كل من فى المدينة رجالا ونساء الى الحرم لشهود صلاة الجماعة .

وللنساء هناك مصلى خاص بهن لا يتعدينه الا اذا كثر عنه عددهن ، وضاق عن احتوائهن كما كان ذلك وقت صلاة العصر التى بعدها ، احتفل فى صحن الحرم بقراءة قصة المعراج . وقتئذ كان كثير من النس فى المسجد الى جانب الرجال .. على كره من أغوات الحرم على ما نظن ، فانى رأيت بعضهم يحتفظ جـدا بجعل النساء

لا يتجاوزن حدود مصلاهن الا للزيارة . ولما قرئت قصة المعرج قام بعض الاعراب الجالسين على الحصباء فى صحن المسجد يحصب بعضهم بعضا وهو يقول (حجينا حجينا) كأنه يشهد الناس أيضا على زيارته للرسول فى هذا الموسم .

وللناس فى المدينة عناية بحضور الدروس ، فقد تجد فى الحلقة ، من غير الطلبة ، كثيرا من المستمعين . أما نحن فقد كنا نغشى الوقت بعد الوقت درس الاستاذ الكبير الشيخ حمدان الونيسى مدرس الحديث والبيان بالحرم الشريف . ولمناسبة ذكر المدرسين يمكننا أن نصرح بأنهم يدرسون هناك التماسا للبركة ، لا يطلبون على عملهم جزاء ولا شكورا .

غير ان من ألزم الاشياء تشجيع العلم فى منبته ، اى فى الحرم المدنى . وذلك قل أن يكون الا بمكافأة اولئك المدرسين ، لا ليزيد اجتهادهم فى تعليم الناس شريعة محمد حول مقامه الكريم ، ولكن لتستمر مجاورتهم ، لان المدرس مهما كثر اجتهاده اذا ضاق به العيش فى المكان الذى يقطنه اضطرا اضطرارا لهجرته ، وليس ذلك من مصلحة العلم . حقيقة انهم يؤتون بعض الرواتب سواء من الدولة أو من الوقف ، ولكنها رواتب زهيدة جدا لا تفى بشىء من حاجات المدرس المنقطع للتدريس . بحثت فى ذلك فتلقفت أطرافا من الروايات مرجعها جميعا الى أن المزورين المطوفين وهم الذين يتصدرون لتعليم الناس كيف يزورون ، وماذا يقولون وبماذا يدعون ، هؤلاء وهم من غير العلماء بالدين ولا بالتاريخ،ولابغيرهما، يأخذون هذه الوظائف بالوراثة . ومما بلغنا من غير

سند ، أنه اذا جاء الحرم رزق يخصص للعلماء ، قال المطرفون أنهم هم العلماء ، فاذا كان للاشراف قالوا انهم هم الاشراف .

مصر والحرب التركية الايطالية

وما كدنا نعود من المدينة المنورة ـ أبى وأنا ـ حتى كانت الحرب التركية الايطالية قد نشبت فى ليبيا ، وأغارت ايطاليا على طرابلس ، فظننت أن هذه فرصة لتحقيق ما كنت أدعو اليه من أن مصر يجب أن تكون للمصريين ، وقد أخذت أنبه ـ على استحياء ـ الى واجب مصر فى هذه الحرب وهو أن تكون على الحياد ، وأن سيادة تركيا لا تجلب لمصر منفعة ولا تدفع عنها مضرة ، ولا تستطيع أن تنقذها من الاحتلال البريطانى الذى لا يمكن الخلاص منه الا بتضافرنا والاعتماد على أنفسنا .

وقد أغضب هذا الموقف بعض الناس ، ولكنى لم ألتفت الى غضبهم ، واتفق أن جاءنى كتاب من تاجر بدمياط لا أعرفه ، يقول فيه ان الطليان احتجزوا له سفينة محملة بالارز فى عرض البحر ، لانها تحمل العلم التركى ، وهو علم مصر ، فذهبت الى حسين رشدى باشا وزير الخارجية وقتئذ واطلعته على الخطاب ، وطلبت اليه التوسط للافراج عن السفينة ، فخابر ممثل ايطاليا فى مصر ، فأفرج الطليان عنها ، وعادت السفينة الى صاحبها .

الفصل التاسع :

مع سعد زغلول والخديو عباس

العلم المصري والاستقلال

في سنة ١٩١٢ استقال سعد زغلول من وزارة الحقانية وخلفه عليها حسين رشدى باشا ، وتولى يوسف وهبه باشا وزارة الخارجية ، فذهبت الى رشدى باشا أطلب اليه أن نبدل بالعلم العثماني علما مصريا يرفعه المصريون على سفنهم وبواخرهم اتقاء لمثل ما وقع لتاجر دمياط . وكان وهبه باشا حاضرا الحديث ، فقال ان هذا العمل سابق لاوانه . ثم رجعت مرة أخرى الى رشدى باشا أطلب اليه أن تعلن مصر استقلالها عن الدولة العثمانية ، وأن تنصب الخديو ملكا عليها ، ويعترف لها الانجليز بهذا الاستقلال ، ورجوته باسم حزب الامة أن يعرض هذا على الخديو عباس واللورد كتشنر المعتمد البريطاني في مصر . وطلبت اليه الا يخبر محمد سعيد باشا رئيس الوزارة في ذلك الحين . وبعد يومين استدعاني ، وأخبرني ان الخديو مسرورا جدا من هذه الفكرة . وأما اللورد كتشنر فقد رفضها لان انجلترا لا تريد مضايقة تركيا ، وقال لى أنه أخبر بها سعيد

باشا ، فقال : « هذه هى الخيانة العظمى » .. فذهبت الى اللورد كتشنر وحادثته فى الامر ، فقال لى :

« لقد بسطنا يدنا لتركيا ، فبصقت عليها ، وولت وجهها شطر المانيا . ولو أنها كانت قبلت مودتنا لتغير الموقف كثيرا .. ومع هذا فانى لا أجد الوقت مناسبا لقبول فكرتك » .

تاليف أول وفد مصرى

رجعت الى رشدى باشا بعد ذلك ، وكان قد قابل الخديو مرة ثانية ، فقال لى :

« ان الخديو يرى أن يؤلف وفدا من عدلى باشا ، وسعد باشا ، وأنت للذهاب الى لندرة للسعى لتحقيق هذا الامر مباشرة مع الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى . وعليه النفقات » ! ..

واجتمعنا فى بيت سعد غلول باشا نحن الثلاثة لندبر الخطة ، وأخذت أنا أنشىء حملة فى هذا المعنى تحت عنوان : « سياسة المنافع لا سياسة العواطف » .

هذه الاحداث امتدت أسابيع ، فى أثنائها قام الامير عمر طوسون ، وبعض الكبراء والاعيان لجمع التبرعات لمساعدة تركيا فى هذه الحرب ، وأخذوا يطوفون البلاد لهذا الغرض ، ويشترون المؤن والاسلحة ويرسلونها للجيش التركى بطرابلس .

وكانت الصحف المصرية ـ عدا « الجريدة » ـ تشجع هذه الحركة ، وتنشر أخبارا عن هذه التبرعات تنبىء أن الامة كلها مع تركيا ، فتداولنا نحن الثلاثة ـ سعد ، وعدلى ، وأنا ـ فى هذا الموقف العسير ، لان الامة وهى

بهذه الحال من تأييد تركيا والاقبال على مساعدتها والتبرع لها ، لا يمكن !ن تريد الانفصال عنها . ولهذا لم ينجح المشروع ، وسقط فى الماء .

استقالة سعد زغلول من الوزارة

فى ابريل سنة ١٩١٢ استقال سعد من وزارة العدل التى خلفه عليها رشدى باشا فى وزارة محمد سعيد باشا . وقد وقفت الى جانبه فى هذه الاستقالة التى تسببت عن حادث — لا داعى لذكره — يهم عابدين وقصر الدوبارة على السواء . وكان الطرفان متبرمين بسعد لصراحته التى كان يبديها فى مجلس الوزراء ، وصلابته فى الحق والعدل ، وحرصه على أداء واجبه ، وانا من الذين ينتصرون لاستقالة الوزراء والموظفين اذا لم يستطيعوا أن يؤدوا واجبهم ، لانى أعتقد ان الوظيفة مهما يكن نوعها ضريبة على الموظف ، لا منحة له . فاذا عجز بأى سبب عن أن يؤدى الى أمته أكثر ما يستطيع أداءه من خدمة حقوقها وتحقيق المبادىء التى يعتقد صلاحها ، فالواجب عليه أن يستقيل ، وتكون استقالته مشرفة لشخصه ، مشرفة لقومه ، ودرسا نافعا للناس ، ومثلا صالحا للصدق والاخلاص فى خدمة المجموع . وليست الوظيفة لمصلحة الحاكم ، ولكنها لمصلحة المجموع . وان السلطة التى فى يد الموظف انما هى لمصلحة الامة لا لمصلحة شخصه ، ولا يجوز أن يكون منها لمصلحة شخصه شىء الا شعور الرضى — ذلك الشعور الذى يحسه الرجل عندما يقوم بالواجب عليه لقومه . فما دمنا نصدر عن هذه القاعدة ، فلا عجب أن نصبنا انفسنا انصارا لفكرة استقالة الوزير أو الموظف كلما وضعت

العراقيل أمام حريته فى العمل ، فأصبح يشعر بأنه لا يؤدى للأمة أكثر ما يستطيع أداءه من الخدمة ، بل قد تطرق الغلو الى اعتقادنا هذا ، فجعلنا لا نكره استقالة الرجل العامل ذى العقل الناضج والارادة القوية من خدمة الحكومة ولو لسبب شخصى لا علاقة له بالعمل ولا بالحكومة ، لاننا فى بلادنا لم نكن قد وصلنا بعد الى الموازنة بين الامة والحكومة فى عدد الرجال الاكفاء المستعدين لان يبنوا بأيديهم مجد أمتهم .

ليس هذا وحده ما فسر انتصارى لاستقالة سعد زغلول فى ذلك الحين ، بل أضيف اليه انه استقال وترك الوزارة بين الثناء والاعجاب ، وألقى درسا نافعا للحاكمين والمحكومين على السواء . فقد دخل سعد زغلول الوزارة بين تصفيق الامة بأسرها واستحسانها . ولا معنى لاجماع الطبقات على استحسان دخوله الوزارة بكل ما عهدناه لوزير غيره عند تعيينه ألا ليكون ناصرا للأمة ، مدافعا عن الحق متشددا فيه .

ممثل المتعلمين الاحرار

كان « سعد » قد دخل الوزارة ليمثل فيها طبقة المتعلمين الاحرار الذين ليس على عقولهم سلطان الا للحق ولا على قلوبهم الا حب الوطن ونفعه ، فحقق فى المعارف سلطة المصرى ، وملأ كرسى الوزير ، وتمكن بقدرته وعلو نفسه من وضع مستشار وزارته عند حد القانون ، وسوى بين الموظفين الاجانب والوطنيين ، وحقق آمال الأمة فى أكثر ما طلبت ، فجعل التعليم باللغة العربية ، وجعل لغة التعليم هى لغة الامتحان ، وأعاد عهد البعثات ، وجعل للنظامات المدرسية قوانين لابد من

عرضها على مجلس شورى القوانين الى غير ذلك من المشروعات التي أعادت الى المعارف عهد وزيرها المرحوم على مبارك باشا .

وكان من أعمال سعد انشاء مدرسة المعلمين ، ومدرسة القضاء الشرعي التي وجد في انشائها صعوبات جمة كانت محكا لشجاعته الادبية ، وقدرته الوزارية ودهائه السياسي ؛ فلما تولى وزارة الحقانية لم يفرط في حقه بصفته وزيرا ، ولم يكن فيها بأقل غيرة على اقامة العدل منه في نظارة المعارف على نشر التعليم حتى كان دفاعه عن اعتقـــــاده مجلبة لمخالفة السلطة وتبرم الخـــديو والانجليز به .

وقد اتهم سعد في استقالته بأنه قد نقصـــه الدهاء اللازم للوزير لارضاء السلطة . وهي تهمة عجيبة . على أنه نجح كثيرا في حمل السلطة على الرضى برأيه وتحقيق مشروعاته .

ومهما قيل في ذلك الزمان من أن الوكالة البريطانية كانت تعاضده ، فمن المحقق ان الرجل كان في كل أعماله لا يخالف اعتقاده ولم يداج فيها ، بل كان يدافع عن رأيه أمام السلطة الشرعية والسلطة الفعلية حتى أنه لما اتفقا معا عليه لم يتحول عن موقفه ، وفضل الاستقالة المشرفة التي قال عنهــــا بعضهم ان استقالته تعتبر استقالة للوزارة .

وحدة مصر وسورية

في نحو سنة ١٩١١ ظهرت لاول مرة بوادر مايسمونه « البنارابيزم » أو الجامعة العربية ، وفى هذا الحين وفد على مصر رجلان من أعيان الشام ولبنان ، همـــا السيد شكرى العسلى من دمشق ، والسيد ثابت من أعيان بيروت ، وكانا نائبين فى مجلس المبعوثان باستامبول. وكان الغرض الذى جاءا من أجله السعى لضم سورية الى مصر .. وقد لقيانى مرارا فيمن اقيا من المشتغلين بالسياسة وأهل الرأى . ولم أكن متفقا معهما فى هذا الرأى لا لتعذر هذا الطلب فحسب ، بل لانى لم أره فى مصلحة مصر . وأذكر ان السيد شكرى العسلى كان متحمسا لفكرته الى حـد أنه كان يدافع عنهـا بصراحـة غلبته على كل اعتبار حتى قال لنا أنا وعبد العزيز فهمى باشا ومحمود بك أبو النصر فى مأدبة بمنزلى :

ــ مصر فيها مال وسورية فيها رجال ! ..

وذلك فى مقام التدليل على فائدة وحـدة ســورية ومصر . وقد انتهى الامر بأنهمـا لم ينجحا فى هـذا المسعى .

***

وكنت منذ زمن طويل أنادى بأن مصر للمصريين ، وأن المصرى هو الذى لا يعرف له وطنا غير مصر .

أما الذى له وطنان يقيم فى مصر ، ويتخذ له وطنا آخر على سبيل الاحتياط ، فبعيد عليه أن يكون مصريا بمعنى الكلمة . وقد دعوت السوريين فى مصر الى أن يسجلوا أسماءهم فى المحافظة ليكونوا مصريين . وبعث الى شكور باشا مدير بلدية الاسكندرية ، وعبد الله صفير باشا مدير المطبوعات بالداخلية يعززان هذا الرأى . ولم أقصد السوريين فقط ، ولكنى كنت أريد أن يتحمل كل قاطن فى مصر من الواجبات ما يتحمله المصريون لتحقيق القومية المصرية . فقد كان من السلف من يقول بأن أرض الاسلام وطن لكل المسلمين . وتلك قاعدة استعمارية تنتفع بها كل أمة مستعمرة تطمع فى توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويحب أن يكون أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الاقطار المفتوحة ليصل بذلك الى توحيد العناصر المختلفة فى البلاد المختلفة حتى لا تنقض أمة من الامم المفتوحة عهدها ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع الى الاستقلال بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق عرضا لنفوذ الغرب، وانقطع أمل هذه الامم الشرقية فى الاستعمار ووقفت أطماعهم عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن تنمحى جنسيتها ، ويفنى وجودها ، فان أكبر مطمع لكل أمة شرقية هو الاستقلال .

ولهذا أصبحت هذه القاعدة لا حق لها من البقاء

لانها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الاسلامية وأطماعها، فلم يبق الا أن يحل محلها المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود ، وهو مذهب الوطنية .

لا يفهم مما أقول أننى كنت أدعو الى التفريق بين العناصر المؤلفة لكتلة السكان المصريين ، بل على ضد ذلك كنت أدعو للجامعة المصرية .. دعوت الذين يتبرمون بالجنسية المصرية التى كسبوها بالاقامة فى مصر أن لا يفروا بأحاديثهم وبأعمالهم من الانتساب الى هذه الجنسية الشريفة . يقيمون بأجسامهم فى مصر، وعقولهم وقلوبهم تتجه غالبا خارج حدودها الى الاوطان التى ضنت عليهم بخيرها .

ان مصريتنا تقضي علينا أن يكون وطننا هو قبلتنا وأن نكرم أنفسنا ونكرم وطننا فلا ننتسب الى وطن غيره ، ونخصه بخيرنا ، والانتساب الى مصر شرف عظيم ، فقد ولدت التمدن مرتين ، ولها من الثروة الطبيعية والتاريخية ما يكفل لها الرقى متى كرم أهلوها ، وعزت نفوسهم ، وكبرت أطماعهم ، فاستردوا شرفها وسموا بها الى مجد آبائهم الاولين .

أول نقابة للصحافة

فى نحو سنة ١٩١٢ دعونا الى تأليف نقابة للصحابة المصرية . وقد استجاب الصحفيون على اختلاف ألوانهم الى هذه الدعوة ، واجتمعت الجمعية العمومية . ثم انتخبت مسيو كانيفيه صاحب جورنال « الريفورم » بالاسكندرية نقيبا ، وانتخبت الاستاذ فارس نمر واياى وكيلين . كما انتخبت كلا من جبرائيل تقلا صاحب

« الاهرام » ، ومسيو فيزييه صاحب جورنال « لوكير » سكرتيرا . وأذكر أني مثلت هـذه النقابة أنا ومسيو فيزييه في حفلة افتتاح معصرة كوم امبر . وقد خطب في هذه الحفلة كل من يوسف قطاوى باشا ، وأحمد شفيق باشا . ولم تعمر هذه النقابة طويلا لان الحرب العالمية الاولى أتت عليها ، ولكنها كانت أول محـاولة لنقابة الصحفيين في مصر .

في انتخابات الجمعية التشريعية

في سنة ١٩١٣ ألغى مجلس شورى القوانين وحـل محله نظام الجمعية التشريعية وكان لابد لي من الدخول في عضويتها لازيد صوتا على أصوات حزبنا في الجمعية، فدخلت في انتخاباتها وكان صديقي فتحي باشا زغلول يعلم أن الانجليز أوعزوا باسقاطي أنا وسعد زغلول باشا في هذه الانتخابات ، فأشار علي بألا أتقدم اليها حتى لا يذهب سعيي سدى ، فقابلت مستشار الداخلية مستر جراهام وسألته عمـــا بلغني في ذلك ، فأكد لي ان الانتخابات ستكون حرة وان الحكومة ستكون على الحياد . ولشد ما كان عجبي حين وجدت على باب مركز السنبلاوين عربة سعيد باشا ذو الفقار وزير المـالية الجـديد .. وعلمت وقتئذ أنه لمـا عين وزيرا بعـد ان كان مديرا للدقهلية طلب اليه أن يدير هو الانتخـابات دون المدير الجديد حافظ حسن باشا الذى كانت الحكومة تعلم أنه صديقي . وعلى هذا الوضع سقطت في الانتخابات . ولكن سعد باشا زغلول نجح بالقـــاهرة في دائرتين ، وأرسل الى تلغرافا يقول لي فيه :

« لئن سقطت فى الانتخابات ، فلك عطف العقلاء » .

وقد أشيع ان الذى أسقطنى هو دعوتى الى الديمقراطية التى كانت تؤول تأويلات بين الناخبين فيها خروج على الدين الاسلامى ، ولكنى لا أعرف شيئا عن هذه الاشاعة التى قيل انها شاعت بين الناخبين ، كما لا أعرف سببا لسقوطى فى الانتخابات الا تدخل الحكومة ، وعملها لاسقاطى .

الصلح مع الخديو

فى أوائل سنة ١٩١٤ طلب الى محمد سعيد باشا مرة ، وسعد زغلول باشا مرة أخرى أن أطلب مقابلة الخديو عباس لانه يرغب فى لقائى ، فكانت اجابتى دائما : « اذا كان الخديو يريد أن يتفضل بلقائى فليدعنى هو الى ذلك » .

وفى احدى التشريفات قال الخديو عباس لوالدى : « أحب أن أراك ومعك لطفى بسراى القبة يوم السبت » .

فاستجاب أبى الى هذه الدعوة وسر بها ، وطلب منى أن أصحبه الى سراى القبة ، فذهبت معه ، فأحسن الخديو استقبالنا . وتكلمنا يومئذ فى بعض الشئون العامة . وقال لى :

« أنا مسرور لحضورك . والاستاذ جرين كلمنى عنك كثيرا .. » ، والاستاذ جرين هو المحامى الذى قدم مذكرة ضد الخاصة الخديوية فى قضية شركة الجريدة

ثم تكلم الخديو عباس عن وزارة محمد سعيد باشا ، وكان برما بها ، ويريد تغييرها ، وسألنى عن رأيى فى الرجال الذين يصلحون لوزارة جديدة ، فذكرت له

أسماء عدة منها سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعدلى ، وثروت .

لما انفض المجلس خرج معنا ليودعنا ، وهو يقول لى : « قد عرفت الطريق ، فتعال عندى كل يوم سبت » .

فقلت له : « يا مولاى ما شأن الكاتب والاتصال بالسلطات ؟! .. »

فقال : « اذن أنت لا تريد أن تأتى عندى ! » .

قلت : « الواجب على يا مولاى أن أجىء كلما دعيت .. » .

فدعا الخديو حافظ بك عوض الذى كان يعمل وقتئذ سكرتيرا خاصا له وطلب منه أن يدعونى كل يوم جمعة ، لاحضر اليه يوم السبت . وكذلك كان .

***

وفى يوم من أيام السبت عرضت عليه أن نحمل حملة على الانجليز نطالبهم فيها أن يساعدونى على أن تكون جزيرة «طشيوز» باليونان تابعة لمصر كما كانت فى زمن اسماعيل ، فانه كان يرسل اليها دائما قاضيا مصريا وبوليسا مصريا لادارة الامن . ثم تراخى الامر بعد ذلك الى أن صارت تابعة لتركيا . ثم أصبحت لليونان ، فوافق الخديو على هذه الفكرة فطلبت اليه الاذن بأن أطلع على الفرمانات الخاصة بها فى السراى ، فكلف شفيق باشا بأن يأمر بترجمة هذه الفرمانات الى اللغة العربية . فترجمت ، وبدأت فى « الجريدة » حملة على هذا الوجه ، مؤداها ان الانجليز اذا لم يحموها من اليونان ، فممن يحموننا ؟ وما كدت أسير فى هذه الحملة حتى قال لى فى يوم سبت آخر :

ـ يخشى أن تقع « سالونيك » ومعها « طشيوز » فى حوزة البلغار . وعلى ذلك يكون من الاصلح أن نستبدل بها أطيانا فى الضلمان بالاناضول .

وكان غرضه من ذلك أن يوسع بهذه الاطيان تفتيشه فى تلك البلاد ، فقلت له :

ـ يا مولاى لست أدرى فى المسائل الاقتصادية شيئا يذكر ..

وطويت أوراقى وصرفت النظر عن « طشيوز » .

بعد ذلك اعتزم الخديو عباس ان يسافر الى استامبول ، ورغب فى زيارة مديريات الوجه البحرى قبل السفر . مظاهرة كان يريد بها اقناع الانجليز بأن البلاد تحبه وتتعلق به ، فدعانى اليه عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوى فى ذلك الحين ، وقال لى :

ـ ان سمو الخديو يحب فى سفرته هذه أن يزور والدك فى البلد ، فهل لكم بيت فى السنبلاوين ؟

قلت : « نعم » ، قال : « اذن تستقبلونه هناك » .

فقلت : « وهو كذلك » .

وشكرت للخديو هذا العطف ودعوت له بطول البقاء ..

ثم قام الخديو بزيارة الوجه البحرى ، واستقبلناه بالسنبلاوين فى حفل من العمد والاعيان . وسر أبى سرورا عظيما بهذه الزيارة ، وصحبناه الى الاسكندرية حتى ركب البحر .

الفصل العاشر :

عرفت تولستوى وفتحى زغلول

ليو تولستوى

فى نوفمبر سنة ١٩١٠ توفى رجل الانسانية والسلام ليو تولستوى . وكنت وقتئذ فى قريتى ، فبعثت الى الجريدة برأى فى هذا الرجل العظيم بمناسبة وفاته فى ذلك الحين فقلت :

أحاول أن أكتب كلمة عن تولستوى حيث أنا الآن فى قريتى ، تحيط بى أشباه المناظر التى كان يحبها تولستوى يحبهم ويتفطر قلبه اشفاقا عليهم رحمة بهم أن يقتربوا من المدائن فتحرقهم نار الشهوات ، وتلعب بقلوبهم البريئة شياطين الاطماع الخسيسة ، فتغير مجرى فطرتهم الصالحة الى عادات البذخ والترف ، وتجرى ألسنتهم على الكذب وتسكن أمزجتهم الى رؤية الزور ، وسماع الهجر من القول والصبر على الباطل .

أكتب عن هذا الرجل الكبير ، حيث أنا فيما كان يحبه ، رحمه الله من السكينة ، لا أسمع الا حفيف الهواء، وصهيل الخيل ، وصياح الدجاج ، ونعيق الغراب ،

وصفير العصافير . فلا شك أني في أليف ظرف من الزمان والمكان .

أحاول الكتابة عن تولستوى ، وان لم يكن تحت يدى ولا مؤلف واحد من مؤلفاته الكثيرة . وانى على ذلك لا أجدني برثائه خليقا ، الا كما يرثى امرؤ هذه الارض الواسعة قد خلت من أحد مصابيحها ذوات الضوء الساطع ، أو كما يشفق أحد بنى آدم من فقد هاد من هداة الفضيلة ، وواعظ من أكبر الواعظين .

أشعر بأن مصيبة العالم فى هذا الرجل ليست كالمصائب التى تفجع لها القلوب ، وتألم لها الانفس بحزن حار ، يجرى الدموع ويسلم اللسان لهذيان من فرط الجزع ، لا أشعر بذلك ، بل أشعر بأن المصيبة بفقد هذا الحكيم مصيبة كبيرة ، واقعة فى النفوس وقعا فاترا ، لا تدمع عينا ولا تخفق قلبا ، ولا تحرك ألما من آلام الاحزان ، كأنما هى تقع على العقول لا على القلوب .

فأولى بوفاة تولستوى أن تشبه بكسوف الشمس أو بخسوف القمر ، أو بأية ظاهرة من تلك الظواهر الطبيعية ، التى أكثر ما تهتم لها عقولنا لتدبرها ، وتعرف آثارها فى الوجود ..

لم يكن هذا الرجل روسيا فقط ، بل كان انسانا قبل كل شيء ، يحب أمته ويحب أعداء أمته ، يحب السلام على الدوام ، يحب أيام السلام وأيام الحرب على السواء . يكره الحرب سواء كانت الغلبة فيها لقومه أو على قومه.

ولم يكن كذلك مسيحيا محدود المشاعر بحدود النصوص أو التقاليد ، بل كان مسيحيا لا حد لتسامحه، يسع صدره الرحيب آراء موافقيه فى الدين ومخالفيه ،

يرى فى الدين أنه طهر للنفس والمشاعر وحب القريب والغريب ، ويرى فى العمل به السعادة فى هـذه الدار الدنيا والآخرة .

فاذا كان تولستوى رجل روسيا وحدها ، بل رجـل العالم والســلام ، واذا كان تولستوى ليس مسيحيا محدودا بمذهب معين متعصبا له ، بل متسامحا يقبـل دين الفضيلة حيثما وجد من غير تحرج بحدود مذهب غير مذهبه الواسع ، فأخلق بمصيبة تولستوى أن تكون كما قدمنا خسارة عالمية ، لا خسارة روسية ، أو خسارة مسيحية .

ان الله يبعث الجيل بعد الجيل على هذه الكرة رجالا من الناس يؤتيهم طرفا من حكمته وقبسا من نور أسراره ينصرون الحق على الباطل ، ويشعرون بنور هديه فى الازمة المظلمة والمكان القفر ، يتبعون سنن الانبياء فى ارشاد النـــاس ، ويقفون نفوسهم وملكاتهم على بلوغ ما يريدون من خير للانسانية ، فاذا مات أحدهم كان موته خسارة تتأثر لها الحقائق العلمية ومكارم الاخلاق ، ولم يكن تولستوى الا أحد هؤلاء . فمن بعــده للفقراء والمساكين يقف لهم فى وجه الظلم والبؤس والنفى والعقاب على غير جريرة . ومن للدين ينصره بشـــجاعة فائقة لا تقف أمامهـا انتقادات المنتقدين ، ورمى له بالزندقة والخروج عن القصد ، بل من للمساواة والمعاملة بالعدل ينصرها من تعدى الطبقات القوية عليها فى كل مظـاهرها السياسية والاجتمـاعية والاقتصادية . بل من يهدى الرجال الى العمل الصالح ، وقد مات الرجل .

اشتغل تولستوى بالفلسفة ، فلم ير رأى النظـريين

بجملته ، ولا رأى المـاديين أو الوضـعيين ، كان عقله الواسع يأبى ، دائما ، وفى كل شيء ، أن يتقيد بالقيود المذهبية التى يستحيل أن تخلو من التعسف .

اشتغل بالسياسة فكان يكره الاستبداد ، وينفر منه ، ويغلب ارادة الجماعة على ارادة الفرد . يقول بسـلطة الامة ، ويعمل بنفسه وبأنصاره وتلاميذه (وهم أكثر من الكثير) على تحقيقها بالفعل .

اشتغل علما وعملا بالاقتصاد ، فكان مذهبه اجتماعيا قريبا جدا من الاشتراكية أو كان هى بعينها . وهو وان كان لم ينجح فى تجربة ، الا أن ذلك ليدل كثيرا على عقله المرتب الذى ظهرت آثاره متجانسة فى جميع الفروع المختلفة التى اشتغل بها .

اشتغل بالدين ، فنفى منه كثيرا جـدا من التقاليد الكنائسية المادية على الاخص ، واتخذ له انجيلا خاصا به أتبعه كثيرون فى تعاليمه .

وقد كان تولستوى على ذلك كله يجب أن يحسب فى كتاب الحقيقة (كتاب الواقع) لا كتاب الخيال (الذين يكتبون عن الانسان باعتبار ما يجب أن يكون لا باعتبار ماهو فى الواقع) . فانى أذكر أن قصـته الموسومة (بالبعث) لم يكن فيها عن الشهوات الا حقائق عريانة ، لاحظ فيها تغليب الشهوة على النبل فى نفس بطـل الرواية ، ثم أظهر فيها أغلاط العدل الانسانى على صورتها التى كانت قد فارقته مؤقتا عند استحكام الشـهوة . وذلك ما نجده عاما فى الانسان كل يوم ، ثم رجع الى تأثير الوسط ، وتغلب ميول النساء مما لا يشذ كثيرا عن الامثلة اليومية التى يجدها مخالطهن ، ولو كان غير عمار ذى كناز الذى قال فيهن :

أراح الله عمــــارا من الدنيــا ومن هن
قريبان بعيـــدان فلا كانا ولا كـــن
يمنين الاباطيـــل ويجحدن الذى قلن

كذلك كان وصـفه لحـــــال الزوجية فى قصصه « لاسونانت أكرتزر » غير ناب عن الواقع ، وان وصفه فيه غير عام فى العائلات مع السرور . ولقد سبب له هذا الكتاب امتعاض السيدات منه ، واتهامهن له فيما كتب ، وأرسلن له خطابات الانتقاد والشتم . وعندنا انه فى هذا الكتاب لم يكن خياليا ، ولا كاتب واقع الا كما كان (أميل زولا) فى كتاب : (الاسوموار) فان عيشة الناس ليست كلها سكرا ،وليست كل الانية ، ولا غالبها فى المدائن حانات وخمارات . كما أن جميع النساء لسن على تلك الحال التى وصفها . ولا ريب فى أن تولستوى أراد أن يبين عيوب التربية الحاضرة وقتئذ ، وانماطهـا المتخذة لتعليم البنين والبنات ، فكتب هذا الكتاب ليجعل الناس يلمسون بالحس نقص تلك التربية ، ليلفتهم الى التربية التى لها قاعدة من الاعتقاد الدينى ترتكز عليهـا لتأتى بنتائج السعادة المنشودة فى العائلة . أقول ان هذا النظر لا يخرج تولستوى من كتاب الواقع ، كذلك يؤكد زعمنا سؤاله (ما العمل ؟) و (الذى يجب عمله) ، وان كان له ما يصح أن يجعله من كتاب الخيال كبعض قطع (الايمبتاسيون) و (حرب وسلام) . فكذلك لا يكون الا لأن عادة عدم التقيد بالمذاهب الضيقة التى اتخذها شعارا له قد غلبت عليه . وليس لنا أن ندخل فى بحث موضوعاته الدينية ، وتعاليمه اللاهوتية ، بل نترك الحكم على ذلك لغيرنا .

فتحي زغلول

أرى من الوفاء لمبادىء الحرية وخادميها أن أذكر صديقا عظيما عمل لنشر هذه المبادىء ، هو المرحوم احمد فتحي زغلول باشا ، فقد نظر نظرة صادقة الى حال الامة المصرية وحكومتها ، فرأى أنها أحوج ما تكون الى معرفة المثل الاعلى الذى تبغى الوصول اليه من نظمها السياسية والاجتماعية حتى تتحد أطماعها الوطنية على طريقة عامة واضحة .. ورأى فوق ذلك ان أول خطوة يخطوها المصلحون العلماء هى نقل العلم الى أوطانهم بالترجمة .. ان هذه الطريقة كانت هى ألف باء النهضة العلمية فى كل أمة وفى كل زمان .

هذه النظرة الصادقة كانت رائد فتحي باشا فى خدمته لوطنه منذ خرج من المدرسة الى أن مات ، فانه فى سنة ١٨٨٨ أخذ يترجم كتاب « العقد الاجتماعى » لجان جاك روسو ، فلم يتمه . ولكنه ترجم بعد ذلك « أصول الشرائع » لبنتام . و « خواطر وسوانح فى الاسلام » للكونت هنرى دى كلتزى . و « سر تقدم الانجليز السكسون » لريمون ديمولان . و « روح الاجتماع » و « سر تطور الامم » لجوستاف لوبون ، و « جوامع الكلم » لجوستاف لوبون ، وقد نشرت هذه الكتب كلها .. وله فوق ذلك كتاب « بورجار » فى الاقتصاد

السياسى » ، و « تمدن العرب » لجوستاف لوبون ، و « جمهورية أفلاطون » و « الفرد ضد المملكة » لسبنسر ..

أما مؤلفاته ، فهى كتاب المحاماة ، ورسالة التزوير ، وشرح القانون المدنى .. وقد ألف قبيل وفاته كتابا فى « التربية العامة » .

نابغة فى الترجمة

عرفت مترجماته وقرأت المنشور منها ، وتصفحت غير المنشور ، وأستطيع أن أقول ، من غير تردد ، أن فتحى زغلول كما كان نابغة فى الفقه . كان نابغة فى الترجمة يمسك الكتاب يقرؤه أولا ، ثم يدخل بنظره الحاد فى طيات نفس الكاتب ، فيظهر أسرارها بقلمه العربى المبين . ومن التراجم ما تترجم الالفاظ تحمل معانيها خالية من روح الكاتب وحرارته ، فلا يكون لها تأثير . أما مترجمات فتحى زغلول ، فانك تقرأ فيها المعانى والاغراض كأنك تقرأ كاتبها من غير فرق .

دخلت عليه فى بيته يوما بمصر الجديدة فى يوم حر شديد ، فألفيته يضع شرح القانون المدنى ، والى جانبه « سر تطور الامم » وقد فرغ من ترجمته فى بضعة أسابيع لازم بيته فيها لمرض أصابه ، فأشفقت عليه من هذا الجهد الشاق فى ذلك الجو المحرق ، على ما نعهده فيه من رقة فى الصحة وعمل دائم طول سنة العمل ، وقلت له : « أبهذا ترتاض يا سيدى الباشا ؟ » فأجاب : « نعم هذه هى رياضتى ! .. » .

فعجبت لجلده وصبره وتفانيه فى خدمة العلم وخدمة بلاده .

كان لفتحي باشا شخصية ممتازة في طريقة أسلوبه البياني . ولم يكن يترجم ليترجم ، ولا طلبا للشهرة والمال من وراء ذلك . وكان حسبه شـــهرة مناصبه العالية وكفاءته التي ما كانت يوما موضعا للشك من أحد، سواء في ذلك أصدقاؤه وحساده ، عارفوه وغير عارفيه . ولكننا اذا أجملنا مترجماته دلنا مجموعها على انه كان له غرض ثابت يرمى اليه من وراء نشر هذه الكتب .

غرضه نشر مبادىء الحرية : حرية الفرد ، وحرية الامة، وتنبيه أطماع الافراد والامة جميعا الى اتخاذ مثل أعلى قبله لهم في آمالهم الوطنية .

منذ سنة ١٨٨٢ كان يرى الامة تتقلب في أحـوال متناقضة مبهمة ، فكانت تسوءه هذه الاحوال ، ويود لو ان الشعور الوطني الذى كان وقتئذ في حذر مستمر ولى وجهه قبل الاستقلال على نحو منتج .. كان يود لو تدرك الامة ان ابهام الغرض وعدم ادراكه بوضوح يجعله مستحيل المنال ، لذلك أراد أن يقدم للجمهور « العقد الاجتمـــاعى » لروسو حتى يتبين الجمهور حق الامة وما يجب أن يكون لها من السلطان .

وللأسف لم يظهر هذا الكتاب مع انه بلغ من ترجمته مبلغا كبيرا ، ولكنه أصدر بعد ذلك ترجمة بنتام في أصول الحقوق والواجبات ، حتى جاء الزمن الاخير فظهـــر الشعور الوطني بمظهر جميل ، ولـكنه لا يزال في مقاصده بعض اللبس حتى فيما هو مكتوب من المبادىء في الصحف ، وما الصحف الا ترجمان الرأى العام .

ولعل فتحي باشا أمام هذه المشاهد أشفق على حرية الافراد ، وتربية الامة الى الميل الظاهر الى ما يشبه الاشتراكية ، فان الناس لم يقتصروا في طلبهم على حقوق الافراد من الحرية وحق الشعب من السلطة ، بل أخذوا مع ذلك يطالبون الحكومة أن تقوم لهم بكل شيء . ومهما كان في أساليب هذه المطالب من الانتقاد الضمنى الا أن مثل هذه الحركة من شأنها أن تجعل الحكومة هي كل شيء والفرد لا شيء !

الاشتراكية قد تكون معقولة اذا كان للشعب شأن في تنصيب الحكومة . والا فهي اشتراكية معكوسة النتائج ، فأخذ فتحي زغلول عن بعد يهدي الافراد الى وجوب الاستمساك بشخصيتهم ، ويبين لهم ان التربية الشخصية هي التي كانت سر تقدم الانجليز السكسون ، فطلب الى المصريين أن يتشبهوا بهؤلاء ، والا يفنوا شخصيتهم ، فيفنى وجودهم ، واستطرادا في هذا النظر تصدى لترجمة « الفرد ضد الامة » و « روح الاجتماع » ، و « سر تطور الامم » ـ كل ذلك لينشر في الجمهور الاسس العلمية للرقي حتى يطبق الناس حالهم على هذه الاصول ، فينتفعوا بتجارب الامم .

ان توفيق فتحي باشا في اختيار مترجماته يدل فوق ما قدمت على انه كان يعتنق مذهب الاشتراكيين الديمقراطيين ، سواء أكان ذلك في التربية والتعليم أم في الاصول الاجتماعية والسياسية بل الاقتصادية أيضا .

ولو شئنا ان عقائده من منتجاته وأحاديثه لضاق بنا

المقام ، ولكنى أكتفى بالاشارة الى أن بين اختياره لتلك المؤلفات ، وبين مذهبه الديمقراطي الاشتراكى فى محاولة الاصلاح الاجتماعي والسياسى نسبا متصلا جد الاتصال .

رجل تطور

من ذلك نعلم أن فتحي زغلول كان رجل تقدم تطورى . فكما أنه كان يرى أن خير القوانين ليس هو القانون الحسن في ذاته ، ولكنه القانون الذى يحتمل الشعب تطبيقه ، كذلك كان يرى ان خير المادىء الاجتماعية والسياسية ما كان بينه وبين طبائع الشعب وعاداته نسب يكمل ما فيها من نقص ، ويقوم ما بها من اعوجاج .

كان فتحى يسترشد بهذه الآراء الحرة . فاذا لم يكن نشرها يتفق مع مركزه فى الحكومة ، فقد نشرها بالترجمة ليرضى دواعي ضميره ، وليثابر على تربية قومه تربية صالحة على قواعد ثابتة مع معرفة الحقوق والواجبات ، فليس فتحي على ذلك من أصحاب المناصب، بل هو من أرباب المذاهب .

ومن كان كذلك من شأنه أن يكون شقيا معذبا ، يكاد لا يكون له من راحته ووقته نصيب ، فهو مقسم بين الاعمال الرسمية الشاقة ، وبين خدمة العلم ، يعمل فى التأليف والترجمة شطرا من الليل ، وأحيانا طول الليل ومدة العطلة ، فاذا لامة فى ذلك أصدقاؤه هز كتفه هزة الفيلسوف لا يبالى مات اليوم أو مات غدا .

نعم كان العالم المفكر فتحى زغلول يرى ان الحياة تقدر بما يتم فيها من العمل الصالح ، لا بعدد السنين والايام .

وقد كان فتحى زغلول أصغر أنجال المرحوم الشيخ ابراهيم زغلول من أعيان أبيانه . ولد فى تلك القرية فى ربيع الاول سنة ١٢٧٩ هـ . ومات أبوه اذ كان رضيعا ، وكان شقيقه سعد زغلول فطيما . خلفهما أبوهما فى حضانة والدتهما التى هى احدى عقائل عائلة بركات الشهيرة بالغربية . وكانت وقت وفاة زوجها لا يتجاوز عمرها العشرين ، فقامت على ولديها ، ووقفت نفسها على تربيتهما تحت اشراف أخيهما الكبير لابيهما المرحوم الشناوى أفندى زغلول الذى عنى بتعليمهما على أحسن ما تعلم به أبناء الاعيان .

تعلم « فتح الله » الصغير فى كتاب البلد ، ثم فى مدرسة رشيد ، ثم فى المدرسة التجهيزية ، ثم فى مدرسة الالسن . فاتفق ان زارها المرحوم أحمد خيرى باشا ناظر المعارف العمومية ، فأعجب بذكاء الشاب « فتح الله » وأعطاه اسم أحمد ، ونحت من فتح الله « فتحى » وأصدر أمرا رسميا الى المدرسة بتسميته أحمد فتحى ، وبأن يرد اليه ما دفع من المصاريف المدرسية ، وبأن يتعلم بالمجان ، فلما كانت سنة ١٨٨٤ أرسلته نظارة المعارف الى فرنسا لدرس الحقوق ، فحصل على شهادة الليسانس ورجع سنة ١٨٨٧ . فوظف بقلم قضايا الحكومة ، ثم رئيسا لنيابة أسيوط ، ثم رئيسا لنيابة الاسكندرية ، ثم مفتشا بلجنة المراقبة فرئيسا لمحكمة الزقازيق ، ثم رئيسا لمحكمة مصر ، ثم وكيلا لنظارة الحقانية ، وهى الوظيفة الاخيرة التى مات وهو قائم بها .

كان فتحى مثال الموظف المتفانى فى أداء واجباته القائم بعمله وعمل غيره أحيانا . ولم يمنعه ذلك من أن يكون مترجما أمينا ومؤلفا كبيرا .

ان شدة الذكاء وقوة النفس وحسن الاخلاص ـ تلك الصفات التى ظهرت آثارها على فتحى باشا منذ شبابه الغض ، راجع معظمها الى التأثير الوراثى من أبويه ، وعلى الاخص والدته التى أفاضت عليه من صفاتها بما يفيض الاصل وبما غرست من المبادىء الصالحة مما جعل لفتحى شخصية ممتازة منذ صباه .

ولا عجب فأمهاتنا نحن القرويين عنهن مع بساطة فى المدارك العقلية وبعد عن العلوم والمعارف على جانب عظيم من الذكاء الفطرى ورفعة الاخلاق ، وعزة النفس ، والذوق السليم فى الحكم ، والطيبة والتقوى فى المعاملات . ينقلن هذه الصفات لابنائهن بحكم قانون الانتقال الوراثى ، فتكون لهم رأس مال فى الحياة العملية . ولولا هذه الصفات لهلك القرويون غير المتعلمين بما هم فيه من جهل عميق ..

فللأمهات القرويات أن يقبلن شكر الجيل الحاضر ، وعلينا أن نعترف علنا بما للأمهات من الاهمية العظمى فى توريث البنين والقيام على تربيتهم الاولى .

وأمامنا المثل الحسى : ان هذه الوالدة القروية ينسب اليها الفضل الاكبر فى انها أخرجت لمصر نابغتين عظيمين: سعد زغلول وشقيقه فتحى زغلول .

الفصل الحادى عشر :

موقفنا من الحرب سنة ١٩١٤

معظم النار من مستصغر الشرر

وقع ما كان يخشاه العالم بأسره ، وعم الخطب سنة ١٩١٤ ولم يبق بعد سبيل الى السلام ، ولم يكن لينتظر أن الخلاف المحلى الذى قام بين النمسا والصرب يصل الى النتيجة التى وصل اليها . وهنا نورد المثل المشهور: « معظم النار من مستصغر الشرر » .

عجزت السياسة والمفاوضات السياسية ، والوساطات الملوكية والامبراطورية عن تأييد السلم وحقن الدماء ، وحماية مصالح الناس ، وانفرد الشر بالحكم فى أوروبا اذ نفخ فى صوره ففزعت لدعوته الملايين ، انقلبوا عن صورهم المدنية ، فأصموا آذانهم عن دعوة الاخاء الانسانى ، واستدبروا نهائيا مبادىء المحبة والغفران والسلام ، وغشى الغضب أبصارهم ، فلم يعودوا يفكرون فى الخسارة الكبرى التى يجنيها المحاربون من وراء الحرب سواء فيهم الغالب والمغلوب . واستهانوا بالاضرار التى تلحق العالم بأسره من وراء هذه الحركة التى ليس فيها من البركة شيء .

تلك حرب لم تكن كحروب القرون الاولى ، فان المدنية الحاضرة قد جعلت الكرة الارضية أشبه بالوطن الواحد فى المنافع الاقتصادية التى هى أساس العمران ، بل علة الحياة ، أجزاؤه متضامنة فى الخير والشر . أقفلت أسواق أوروبا وميزان الحركة الاقتصادية العامة معلق بين أصابعها ، فأخلت بالموازنة فى كل شىء حتى فى أسعار الاقوات فى كل البلاد ، وأصبحنا فى مصر ونحن بمركزنا الاستثنائى بعيدين عن هذه الحركة الحربية نشعر من أول يوم بالرجات الشديدة التى انتابت سوقنا المالية ، وعلى هذا القياس كل أنحاء الكرة الارضية . أفلا يعلم الذين يعلنون الحروب بكلمة من أفواههم ، مقدار المسئولية التى يحملونها بهذه الكلمة الكبرى التى تسفك دماء الملايين من الابرياء بالمعنى الصحيح الذين يتمثلون بقول القائل :

لم أكن من جناتها علم اللـ
ـه وانى لحرها اليوم صالى

يقاد أحدهم من الدار الى النار ، لا دفاعا عن وطن مهدد ، ولكن ارضاء لشهوات العظماء ، ارضاء لرؤساء الاحزاب ، ارضاء لكلمات ضخمة مجوفة ترن رنين تمثال آمون وليس فى بطنها من الحقيقة شىء .. رحم الله « جوريس » أول قتيل لهذه الحرب ، وأول ضحيـة من ضحاياها الذاهبة فى سبيل الحق والسلام .

قلت لرشدى

هذا وقد كان لمصر وقتئذ مصالح يجب أن ترعاها ، وكانت الوزارة الرشدية بالاسكندرية ، فاتصلت برئيسها صديقى المرحوم حسين رشدى باشا عن طريق التليفون، وما كدت أخاطبه فى أمر عادى حتى قال لى :

ــ دع عنك هذا ، فان انجلترا أعلنت اليوم الحرب على ألمانيا ..

ودعانى للقائه فى اليوم التالى ببيته بالقاهرة .

وذهبت للقائه ، فوجدت معه عدلى يكن باشا وزير الخارجية وهما يحلان تلغرافا بالشفرة من زميلهما محمد محب باشا ، وكان وقتئذ بصحبة الخديو عباس حلمى باستامبول ، فقال لى رشدى باشا :

ان انجلترا قد دخلت الحرب ، وقد كتبنا هذا باعلان الاحكام العرفية فى البلاد .

وسلمنى اعلانا ، فقلت له :

ــ أتدخل الحرب مجانا يا باشا .. ؟!

قال :

ــ بل احترزنا مما تخاف ، بأن قلنا « نظرا للاحتلال الفعلى لانجلترا فى مصر » .

فقلت له :

ــ أخشى أن يقول الناس ان هذه سذاجة سياسية ،

فاذا كانت انجلترا تريد أن تجرنا معها الى هذه الحرب ، فلتعترف لنا أولا بالاستقلال .. !

قال رشدى :

ـ لم يفت وقت ذلك .. !

واتفقنا نحن الثلاثة على السعى لتعترف انجلترا باستقلالنا ، ونكفل لها مصالحها الى حد أن نعاونها بدخولنا معها الحرب اذا كان هذا ضروريا .

وقد كان أكثر رجال الوكالة البريطانية وقتئذ في أوروبا بالاجازة . ثم كان « سير ريجنلد ونجت » أول من حضر منهم ، فكلمه رشدى باشا فى ذلك ، وصارحه بأن مصر مستعدة لمناصرة بريطانيا العظمى بشرف أن تعترف باستقلالنا ، فارتاع « ونجت » لهذه الفكرة ووعد بأن يعرض الامر على حكومته . ثم جاء بعد ذلك مستشار الداخلية « سيرجراهام » فلقيته وقلت له :

ـ ان مركزنا الآن دقيق ، فنحن تابعون لتركيا ، وهى ستدخل الحرب مع ألمانيا وأنتم محتلون بلدنا الذى أعلنت حكومته الحكم العرفى تضامنا معكم ، فلابد لنا من تنظيم هذه الحالة .. ولست أرى طريقا لذلك الا ان نعلن استقلالنا وننصب الخديو ملكا علينا ، وأنتم تعترفون بذلك .

فقال : تركيا لن تدخل الحرب ، وعندنا على ذلك ضمانات .

قلت : لم يكن دخول تركيا الحرب راجحا ، أفلا يكون محتملا ؟

قال : كل شيء محتمل .. !

قلت : اذن ماذا يكون .. ؟!

فلما ألححت عليه فى الاستدلال على ضرورة دخول تركيا الحرب وسوء مركزنا فى ذلك الوقت ، قال :

ــ يا صاحبى نحن نعرفكم كما تعرفون أنفسكم .. فحين ظهور أول طربوش أول تركى من القنال تتركوننا وتجرون وراءه .

وانقطع الحديث عند ذلك ، فأخبرت رشدى باشا بما حدث ، فقال لى أنه كلمه كذلك فلم ينل منه طائلا !

وحدث ان دعا رشدى باشا سير « ستورس » السكرتير الشرقى للوكالة البريطانية ليتغذى معه بالكونتيننتال . وعلم بذلك محمد محمود باشا ، فدعانى أن أتغذى معهم الى جانبهم ، كى نعلم بعد الغذاء من رشدى باشا ماذا دار بينهما ، ولما انتهينا قال لنا رشدى باشا :

ــ ان ستورس يؤكد فكرتنا كالسير ريجنلد ونجت ، ووعدنى بأنه سيخابر أباه العضو فى البرلمان البريطانى ليثير هذه المسألة عند الحكومة البريطانية .

كسرت قلمي

وكنت ، وقتئذ ، أتردد على عدلي باشا لاعرف الى أي حد وصلت مسألتنا ، وذات يوم التقيت به فوجدته متشائما ، وبادرني بقوله :

ــ ليس عندي أمل في نجاحنا .. !

فخرجت من عنده مكتئبا كاسف البال ، وزارني بعد أيام نجيب باشا غالي وكيل الخارجية في ذلك الحين ، فسألني قائلا :

ــ ما هو الامر الذي تتردد من أجله على عدلي باشا ؟ ..

فأفضيت له بما عندي ، وقلت :

« ان الامر قد انتهى بالفشل ، ولهذا سأكسر قلمي ، وأذهب الى بلدي ، وأعتزل السياسة » .

وفي اليوم التالي كلمني ستورس بالتليفون ، وقال لي :

ــ لا تيأس .. !

ثم كلمني بعد دقائق نجيب غالي باشا يدعوني الى العشاء عنده أنا وستورس ــ وكان اللورد كتشنر قد عين وزيرا ــ فقلت لنجيب باشا :

ــ اني أقبل الدعوة بشرط أن يحضر معنا عدلي باشا

فأجابني الى ذلك . واجتمعنا نحن الاربعة في بيت

نجيب باشا حدثنا ستورس حتى ظننا ان النجاح فى متناول يدنا ، فوضعنا في بيت نجيب باشا صورةالمعاهدة بيننا وبين بريطانيا العظمى تتضمن اعترافها باستقلالنا واعترافنا بمصالحها فى مصر وفى قنال السويس .

كل ذلك فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤ وكان الامل يحدونا جميعا .

ذهبت بعد أيام قلائل الى عدلى باشا بديوان الخارجية فوجدته قد يئس نهائيا من تحقيق مطلبنا ، فخرجت من عنده وأنا مصمم على اعتزال الســـياسة ، ثم قدمت استقالتى من رئاسة « الجريدة » لرئيسها محمود سليمان باشا ، وسافرت الى بلدتى « برقين » . وكان هذا آخر عهدى بالعمل الصحفى .

عدت موظفا فى الحكومة

ما كادت تمضى على اقامتى فى برقين مدة طويلة حتى عزل الخديو عباس ، وأعلنت الحماية على مصر ، ونصب الامير حسين كامل سلطانا عليها .

وشاع بعد ذلك فى البيئات السياسية فى مصر ان تركيا حكمت بالاعدام على السلطان حسين وأعضاء وزارة رشدى باشا ، باعتبار أنهم قبلوا الحماية ، وعلى أنا أيضا باعتبار انى أثرت حركة سنة ١٩١١ ضد الاتراك .

وفى سنة ١٩١٥ كنت بالقاهرة ، فجـاءنى أبى من « برقين » مذعورا وهو يقول انه قد أشيع عنـدنا أن سعد زغلول باشا قبض عليه ، فخشى أن يكون قد قبض على أيضا ثم ذهبت معه الى بيت على شعراوى باشا ، فقال لى شعراوى باشا : « ان ستورس سألنى عنك ،

وسأل هل جففت دموعك من يوم اعلان الحماية على مصر أم لا ؟ » . ثم قال لى : « ان السلطان حسين يرغب فى أن تدخل وظائف الحكومة » .

كل هذه الظروف جعلت أبى يستحثنى على أن أقبل الدخول فى الحكومة حتى لا يقبض الانجليز على . فقبلت ذلك ارضاء لوالدى رحمه الله . وعينت رئيسا لنيابة بنى سويف ليمكن ترشيحى قاضيا بالاستئناف . ولم ألبث فى بنى سويف غير أشهر ، وأرسل الى عدلى باشا بأن أحضر الى الاسكندرية ، ولما حضرت أخبرنى ان السلطان حسين مصمم على أن أكون مديرا لدار الكتب المصرية خلفا للدكتور شادة المدير الالمانى ، فقبلت ذلك .

لماذا ترجمت أرسطو ؟

نشأت من الصغر ميالا الى العلوم المنطقية والفلسفية . وقد لفت نظرى فى أرسطو أنه أول من ابتدع علم المنطق، وأكبر مؤلف له أثر خالد فى العلوم والآداب . ولما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائى فى وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث فى النهضة الاوروبية ، فقد عمد رجال هـذه النهضة الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الاصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الـذى أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة .

ولما كانت الفلسفة العـربية قد قامت على فلسـفة أرسطو ، فلا جرم ان آراءه ومذهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية ، والطريق الاقرب الى نقل العلم فى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وفى الحق أن أرسطو لم يكن كغيره معلما فى نوع خاص من العلوم دون سواه ، بل هو معلم فى الفلسفة ، معلم فى السياسة والاجتماع ، فهو كما لقبه العرب بحق « المعلم الاول » على الاطلاق ، وكما وصفه دانتى فى جحيمه « معلم الذين يعلمون » .

وقد ترجمت فى سنة ١٩٢٤ عنه « كتاب الاخلاق » . وهذا الكتاب يعد مقدمة لكتاب السياسة . بل ان جانبا كبيرا منه يمهد لموضوع كتاب السياسة ، فأردت أن أترجمه ليستفيد منه قراء العربية .

***

أما القواعد التى وضعها أرسطو لعلم السياسة فما زالت هى القواعد السائدة بين الساسة ، وهى القواعد التى يدرسها الآن طلبة العلوم السياسة فى الجامعات ونحن نسمع الآن كلمات الاتوقراطية ، والديمقراطية ، والدكتاتورية ، وهى كلها من تعبيرات أرسطو وابتداعه .

وقد قال أوغست كونت : « الواجب على أن أنوه باسم أرسطو العظيم ، فان سياسته الخالدة هى بلا شك احدى النتائج الباهرة للزمن القديم . على أنها الى هذا الوقت هى المنوال الذى نسجت عليه أكثر الاعمال التى جاءت بعدها فى هذا الموضوع » .

والسياسة عند أرسطو هى أشرف العلوم ، لانه يعرفها بأنها تدبير المدينة ليكون سكانها فضلاء ، ومن هذا التعريف ترجع الى السياسة سائر العلوم ، أو كما قال أرسطو أن السياسة تبين ما هى العلوم الضرورية لحياة الممالك ، وما هى العلوم التى يجب أن يتعلمها السكان ، والى أى حد ينبغى أن يعلموها .

أول مجمع للغة العربية

فى نحو سنة ١٩١٦ دعانى المرحوم اسماعيل عاصم المحامى مع عدلى باشا ورشدى باشا والاستاذ يعقوب

صروف وآخرين فى بيته وتحدثنا عنده فى ضرورة ايجاد مجمع للغة العربية لا يكون تابعا لوزارة المعارف ، ولكنها تأويه فى دار الكتب المصرية ، وتمده بمساعدة عمالها وموظفيها فى أعماله الكتابية ، ودعوت حفنى بك ناصف وعاطف باشا بركات ، ووضعنا قانونا للمجمع ، وألفناه برياسة الشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الازهر ، وكنت أنا سكرتير المجمع ، وأذكر من أعضائه الشيخ محمد بخيت ، والشيخ عبد الرحمن قراعة ، وعاطف باشا بركات ، والاستاذ يعقوب صروف ، وحفنى ناصف بك ، والشيخ الاسكندرى وحلمى عيسى باشا .. ومن ألطف ما أذكره عن هذا المجمع اننا مكثنا سنة كاملة نتناقش فى جواز التعريف !!

وقد انطوى هذا المجمع ولم يعمر طويلا .

الفصل الثانى عشر :

فى ثورة سنة ١٩١٩

لماذا طلبنا الاستقلال التام

فى سنة ١٩١٩ ، نهضنا نطالب بالاستقلال التام ـ وقبل ذلك بزمن بعيد طلبناه ودعونا اليه ـ طلبناه على طرق متنوعة ، وبصنوف مختلفة . طلبناه من فرنسا ، ومن انجلترا ، ومن السلطة الشرعية ، طلبناه بأقلام الكتاب ، وبألسنة الزعماء .

طلبنا الاستقلال التام ، لان الحرية هى الغذاء الضرورى لحياتنا . ولو كنا نعيش بالخبز والماء ، لكانت عيشتنا راضية وفوق الراضية ، ولكن غذاءنا الحقيقى الذى به نحيا ، ومن أجله نحب الحياة ليس هو شبع البطون الجائعة ، بل ارضاء العقول والقلوب .. وعقولنا وقلوبنا لا ترضى الا بالحرية .

انا اذا طلبنا الحرية لا نطلب بها شيئا كثيرا .. انما نطلب ألا نموت . ولا يوجد مخلوق أقنع من الذى لا يطلب الا الحياة ووسائل الحياة . كما أنه لا أحد أقل كرما من ذلك الذى يضن على الموجود الحى بأن يستوفى قسطه من الحياة .

لست أعجب من الذى يستهين بحيـــاة الرجـل ، فيستعجل عليه القدر المحتوم . ولكنى أعجب من الذى يبالغ فى الرحمة بالانسـان فيريد له الحياة شبعان ريان معطل الحرية ، قد ضرب بين عقله وبين الاشياء والمعانى بحجاب فلا يتناولها ، وحيل بين مشاعره وبين موضوعات غذائها ، فلا تتحرك بل تموت .

أعجب من الذى يظن الحيـاة شيئا والحـرية شيئا آخر ، ولا يريد أن يقتنع بأن الحرية : هى المقوم الاول للحياة ، ولا حياة الا بالحرية .

أجل ان المرء يحفظ حرية الفكر ، وحرية المشاعر ، أى يحفظ حرية الطبيعة حتى فى غيابة السجن ، يحفظها فى كل حال هو عليها ما دامت روحه فى جسده . انه خلق حرا .. حر الادارة ، حر الاختيار بين الفعل والترك، حرا فى كل شىء حتى فى أن يعيش وفى أن يموت متى قدر له .

لا فائدة من حرية معطلة

ان هذه الحرية الطبيعية لا فـــائدة منها اذا تعطلت من آثارها ، فالذى سجن ، والذى منع الكلام ، والذى منع الكتابة .. كل أولئك يحفظون حريتهم فى نفوسهم ، ولكنهم فقدوا الانتفاع بها ، أى فقدوا بذلك الحــرية المدنية .

لا أريد بذلك أن أتصدى للتعريفات الاصطلاحية لانواع الحرية ، ولكن جرنا اليه التدليل على أن الحرية المعطلة عن الاستعمال هى فى حكم المفقودة ، وان الحرية الطبيعية الملازمة للانسان لا يصح أن تسمى حرية الا اذا كان ميسرا

له استعمالها . رأيت ان المرء يرى الطـــــريق بعينيه المكتوفين ، لكن العين المعصوبة ، واليد الموثوقة كلتاهما فى حكم المعدومة .. انما يكون المرء حرا بمقدار ما لديه من وسائل استعمال هذه الحرية . وانمـا يـكون حيـا بمقدار ما حاز من الاستمتاع بالحرية . فالحرية الناقصة حياة ناقصة . وفقدان الحرية هو الموت ، لان الحرية هى معنى الحياة .

طبعنا على حب الكمال

طبعنا على حب الكمال فى حياتنا ومعاداة كل العوارض التى تعرض لنا فى طريق المثل الاعلى للمعيشة المستكملة وسائل الحرية وآثارها . ولا خيرة لنا فيما طبعنا عليه .. وسواء أكان هذا الشوق الطبيعى الى حياة الحرية مصدر سعادة أم مصدر شقاء ، فانه على كل حال نار تتأجج بين ضلوع الحى لا تبرد أو تصل به الى المرغوب. أجل أن المثل الاعلى ليس نقطة ثابتة ، ولا غرضا محدود المسافة يمكن بلوغه .. بل كلما بلغناه انتقل شبحه أمامنا الى نقطـة أخرى على بعد مرمى النظـــــر لسنا بالغيه ولا منصرفين عن التشبث بتركه ، بل تسوقنا اليه حاجة لا قبل لنا بالصبر عن قضائها .. ولو كلفنا أن نركب متن التعسف !!

ولهذا يستغلق علينا فهم الاباطيل القديمة التى كانت الفطرسة الجنسية تأخذ بها الكتاب ليسقطوا فى هاوية التناقض .

يقولون ان بعض الناس خلق للسيادة أبدا ، وبعضهم خلق للعبودية ، بدا . ولا نزال نرى هذا خطأ يتردد فى

آراء الساسة المستعمرين على صـــورة أقل شناعة ، وبعبارة أكثر ائتلافا مع مدنيتنا الحـديثة .. يضعون أصابعهم فى أعينهم ، اذ تكون النتيجة المنطقية النهائية لهذه المقدمات الصـــادقة هى هذه الجزئية : « بعض الانسان لا انسان » .

كذبت فلسفتهم

كذبت فلسفتهم ، وصدق الذى يشعر به كل انسان منا فى نفسه من الميل الى الرقى فى كل شىء ، والى الحرية قبل كل شىء . صدق هذا الاثر الذى تجده فى طليق الاسير أو السجين يوم اطلاقه ، وفى محاولة المعقول أن ينشط من عقاله . صدق ذلك الالم الذى يجده ذو الفكرة العلمية من حبس حريته عن التصريح بها ، فتظل تجول فى نفسه ، ويغلى فى صدره حب ابدائها ، ويقلق ذلك خاطره ، ويكد ضميره ، ويحتوى على كل مشاعره ، حتى يفضل الموت فى ارضاء هذا الحب على الحياة فى كتمانه . وكم من عالم استحب الموت على الحيـــاة فى سبيل حبه لحريته العلمية .. فمنهم من قتل ، ومنهم من أحرق ، ومنهم من حبس أو عذب . وجلهم من تلك الامم التى يقولون انها خلقت لغير السيادة . فاذا وجدت عبدا لم يؤثر الحرية على العبودية ، ولم يطب نفســا بالعتق من الرق ، فذلك مثل من الامثلة النادرة فى بنى الانسان ، وليس قاعدة يصح الاخذ بها .

ان الذى يراجع الماضى لا يجـد أمة من الامم المخلوقة للعبودية ـ كما يزعمون ـ الا قاتلت عن حريتها . واذا كان أصدق المعلومات هى التى المعلومات التى تقـدمها

لنا المشاهدة الواقعة ، فالانسان ــ على الرغم من فلسفة المستعمرين ــ حر بطبعه ميال الى الحرية ، ميال الى الارتقاء فيها الى المثل الاعلى ، وفى سهولة الوسائل الموصلة اليه .

الحرية طبيعية

الحرية طبيعية وميل الناس الى تحصيلها طبيعى بالضرورة ؛ يشتد ويظهر مع القوة الحيوية ويضعف وتخمد آثاره مع الضعف ، فكما أن القوى لا يموت جوعا كذلك لا يصبر على الحياة البعيدة عن المثل الاعلى للحرية .

ولقد أصبحنا فى بلادنا ندرك الحرية بمثلها الاصلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان . فقد أصبحنا نمتعض من كل فكرة ومن كل قانون ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية والمدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية وأصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الامة هى حكومة الدستور . ومنا من لا يخشى أن يصرح بأن استقلال الامة هو الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، فلم يبق علينا للتدرج فى مراقى الحرية والتقريب من مثلها الاعلى المتفق عليه بيننا ، الا الوسائل المنتجة . فان ادارة الامر شىء والقدرة عليه شىء آخر .

أما القوة فان طبيعتها تختلف فى كل زمان ومكان تبعا لطبيعة عيشة الامة واعتقاداتها الدينية وعاداتها وأخلاقها، ونتيجتها تختلف دائما باختلاف طبيعة الوسائل التى يمكن

استخدامها . وعندنا أن أول مظهر للقــوة هى القوى المعنوية قوة الحرية العلمية فان الآراء العلمية ليس من شأنها أن تجد من القوة القاهرة خصوصا فى الازمان الحاضرة معارضة تذكر . فاذا استخدم المتعلمون ارادتهم فى اظهار حريتهم العلمية ، كان لهم من ذلك مرانة تنفعهم فى تربية اخلاق الشعب وتعويده على حرية الرأى والصبر على الاذى الذى ينتج دائما عن حرية الرأى سواء أكان من الحكام أم من المحكومين .

ان الذين يبخلون علينا بالقرب من المثل الاعلى من حريتنا التى أتانا الله اياها من فضله ، يجــدون أمثلة تقصيرنا فى اظهار حرية الرأى فى العلم وفى السياسة ما يحتجون به فى ارادتنا على البقاء على ما نحن عليه . فاذا أحسوا من حريتنا فى الآراء العلمية الارادية قوة لا يقف أمامهـــا استهزاء الجهلاء ولا غضب الـكبراء ولا استدرار المنافع الخسيسة ، لا يجدون مندوحة من التخلية بيننا وبين طريقنا الى المثل الاعلى لحريتنا . ومن قصر النظـــر أن يظن ان هــذه القــوة المعنــوية قــوة التمسك بالحرية والتماسك على نصرتها غير كافية فى تقريبنا من مثلها الاعلى . أقول وأؤكد أنها هى وحــدها كافية فى انالتنا طلبتنا . فلنرض نفوسنا على الاستمساك بها ولننتظر النتيجة .

ان تقدمنا فى نيل قسطنا الطبيعى من الحريةيستحيل أن يوجد ولو كانت فى أيدينا أكبر معدات القوةالوحشية، وكان عددنا أضعاف ما نحن عليه ، اذا كنا لا نتخلص من وصمة عبادة الآراء والافكار من غير تمحيص اعتمادا

على مكانة قائلها . واذا كنا لا نقطع بأيدينا تلك السلاسل التى قيدت عقولنا والاوهام التى أفسدت علينا الاستفادة من المبادىء الجديدة . اننــا اذا جربنا أن نرفع منــار الحرية فى الميدان الذى لنا فيه حرية العمل وليس لنا فيه مزاحم ولا شريك كان ذلك فاتحة خير لاظهار شىء من القوة الضرورية لظهور الحرية وتأييدها .

الاصدقاء الخمسة

ولقد أصبحنا في بلادنا ندرك الحرية بمثلها الاعلى الذى يأتلف مع شرف الانسان فى هذا الزمان ، وصرنا نمتعض من كل فكرة ، ومن كل قانون ، ومن كل عمل يمس الحرية الشخصية أو يعطل استعمال الحرية المدنية فى غير الحدود المتفق عليها فى أعلى البلاد مدنية ، وأصبحنا كذلك نرى ان الحكومة المعقولة الوحيدة المطابقة لشرف الامة هى حكومة الدستور وان الطلبة الكبرى التى يجب أن توجه اليها قوى الشعب بأسره ، هى الاستقلال التام .

لهذا نهضنا نهضة مباركة ، وهدفنا هذا الغـــرض العظيم ، وبدأنا نحن الاصدقاء الخمسة : « سعد زغلول ، وعبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى ، ومحمد محمود ، وأنا » .. نفكر فى كيفية الاستفادة من المبادىء الاربعة عشر التى أعلنهـــا الرئيس ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة .. تلك المبادىء الحرة التى تنص فى جملتها على أن كل أمة مهما صغرت ، لها الحق فى اختيار مصيرها ، وتقرير الحكم الذى ترضاه بمحض ارادتهــا وحريتها .

وفى نوفمبر سنة ١٩١٨ . بدأنا نؤلف الوفد المصرى ، واستقلت من دار الكتب المصرية .. واخذنا نعمل فى

ذلك الحين على ما جاء فى « مذكرات صديقى عبد العزيز فهمى » باشا (١) .

ولا أستطيع بالضبط أن أروى الآن ما جـــرت به الحوادث من وقت تأليف الوفد ، وأن كنت قد كتبت بها يوميات لكنى اضطررت لاحراقها ، كما سأقص هنا :

بعد أن نفى الى مالطة أصحابنا الاربعة : سعد زغلول ، ومحمد محمود ، واسماعيل صدقى ، وحمد الباسل . قامت فى البلاد ثورة عنيفة فى أوائل سنة ١٩١٩ ، كانت من الخطر بحيث لم نكن نتوقعها ، حتى لقد ألفت فى مديرية المنيا جمهورية برياسة الدكتور محمود عبد الرازق بك الطبيب ، وقطعت سكة الحديد بينها وبين القاهرة . وكذلك قيل عن تأليف جمهوريات فى بعض مديريات الوجه البحرى ، فدعتنا نحن أعضـــاء الوفد الباقين السلطة العسكرية للمثول أمامهـــا فى فندق سافوى . وكان بين ضباطها العظام مستر ايموس .. فلما مثلنا أمامها وجه القائد العام الينا الكلام ، محملا ايانا مسئولية الثورة .. فكان جوابى على هذه التهمة :

« ان الوفد برىء منهـــا ، وان تبعتهـــا تقع على السلطة العســـكرية التى نفت أربعـــة من رجال الوفـــد المصرى بلا ذنب أتوه الا أن يطالبوا بحرية بلادهم . ثم قابلت المظاهرات البريئة بالمترليوز ، فغضب أهالى البلاد لقتل أبنائهم ، وقاموا بهذه الحركة . وانى أنصح للسلطة العسكرية أن تستدعى حسين رشدى باشا ، أو عدلى

---

(١) هذه المذكرات صفحات نفيسة من الثورة الوطنية فى مصر لا غنى لقارىء تاريخ مصر عن قراءتها .. وسننشرها قريبا فى سلسلة كتاب الهلال .

يكن باشا ، أو ثروت باشا ليؤلف وزارة تعمل على ترضية الامة ترضية كافية . وبهذا يقضى على الثورة » .

وبعد لقائنا لرجال السلطة العسكرية بأيام قلائل ، كنت مع صديقى عبد العزيز فهمى مجتمعين فى منزل على شعراوى ، فوفد علينا صديقنا الدكتور يوسف نحاس ، فقال لنا أنه علم عن ثقة ان السلطة العسكرية الانجليزية ، ستفتش بيوت أعضاء الوفد الباقين ، وتقبض على أربعة منهم لتقتلهم بالرصاص فى اليوم التالى ، وتصادر أملاكهم » .

على هذا الخبر ، قمت أنا وعبد العزيز باشا ، وركبنا سيارة شعراوى باشا ، وأوصلت عبد العزيز الى منزله بمصر الجديدة ، وذهبت الى بيتى بالمطرية ، فأحرقت كل أوراقى السياسية ، لانه لم يكن عندى الوقت الكافى لفرزها ، وكان من بينها يوميات الوفد التى لم تخل صحيفة منها من ذكر رشدى باشا ، وعدلى باشا ، وثروت باشا .. أحرقتها خوفا عليهم من أن يصيبهم ما سيصيبنا من عنت واستبداد ونكال .

ويلسون يوافق على الحماية

جلست بعد حرق هذه الاوراق فى مكتبى ، أنتظر التفتيش والقبض حتى الصباح . ولكن لم يكن من ذلك شىء .. وفى هذا الحين عين المارشال اللنبى معتمدا بريطانيا فى مصر ، وأعلن أنه يقبل من أى كان ما يراه فى أمر وقف الثورة القائمة ، وعودة السكينة والسلام الى البلاد . فأرسل اليه الوفد تقريرا شرح فيه أسباب الثورة وعزا حدتها الى تصرف السلطة العسكرية العنيف ،

ونصح بتنصيب واحد من الثلاثة المذكورين سالفا رئيسا للحكومة ، والافراج عن المنفيين الاربعة واعطاء البلاد الترضية الكافية .

وعلى اثر وصول هذا التقرير اليه استدعانا وأخذ يناقشنا ، حتى اقتنع بما فيه ، فتألفت وزارة برياسة حسين رشدى باشا ، وصدر الامر بالافراج عن المنفيين، وأبيح لنا السفر الى انجلترا على باخرة عسكريةانجليزية، ذهبت بنا الى مالطة ، فاصطحبنا زملاءنا : سعدا ، ومحمد محمود ، وصدقى ، وحمد الباسل . حتى اذا ما وصلنا الى مرسيليا جاءنا تلغراف بأن مستر ويلسون رئيس الولايات المتحدة قد وافق على الحماية الانجليزية على مصر ، فكانت صدمة قوية من هذا الذى نادى بحرية الشعوب ، وأعلن مبادئه الحرة التى قوبلت فى العالم أجمع بالغبطة والاعجاب ، وبخاصة عند الشعوب المهضومة .

فى مؤتمر السلام

ذهبنا الى باريس ، وتقدمنا للمؤتمر السلام ، فأغلق أبوابه أمامنا ، وقابلنا أعضاءه على النحو الذى أيأسنا منه ، ووصفه صديقى عبد العزيز فهمى باشا فى مذكراته .

ولما وقع الخلاف بين سعد وعدلى على رياسة المفاوضات ، وانتقل الامر الى خصومه كان مظهرها التلاحى ، اعتزلت السياسة ، ثم عرض على أن أرجع لدار الكتب المصرية ، فرجعت اليها ، وأخذت أشتغل بها وبترجمتى لمؤلفات أرسطو ، وبالجامعة المصرية القديمة التى كان رشدى باشا رئيسا لها ، وكنت وكيلا لها .

وأذكر انى فى سنة ١٩٢٢ وضعت منهاجا لهذه الجامعة باعتبارها كلية للآداب ، وقابلت الملك فؤاد ، وعرضت عليه هذا المنهاج ، وطلبت أن تجعل الحكومة شهادتها كشهادات المدارس العليا ، ما دام منهاجا يقضى بموافقة الحكومة عليه وتمثيلها فى الامتحانات ، فكان جواب الملك فؤاد :

« ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة ، فيمكن اعتبار الجامعة القديمة كلية آداب فيها .. » . فاغتبطت بذلك وجمعنا مجلس ادارة الجامعة والجمعية العمومية ، ليوكل رشدى باشا فى التعاقد مع الحكومة بشروط وضعت لتحقيق هذا الانضمام .

الفصل الثالث عشر :

من الجامعة إلى الوزارة

أسسنا الجامعة

ذكرت أن الملك فؤاد قال لى ان الحكومة عازمة على انشاء جامعة تضم المعاهد والمدارس العليا ، وأنه يمكن اعتبار الجامعة المصرية كلية آداب فيها ..

على هذا الوعد عقدنا مجلس ادارة الجامعة فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ لتسليم الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية . وكتبنا بذلك عقدا أمضاه أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وحسين رشدى باشا رئيس الجامعة . وعنيت بأن أذكر فى شروط هذا العقد أن يكون الدكتور طه حسين أستاذا فى الجامعة الجديدة .

قد يكون من المفيد أن أسجل فى هذه الصفحات ذلك العقد وتلك الجلسة التاريخية التى تم فيها هذا التسليم على النحو الآتى :

محضر الجلسة

نظرا الى أن الجامعة المصرية طلبت الى وزارة المعارف

العمومية أن تعتبر شهادتها كشهادات المدارس العالية التى تخول التوظف فى الحكومة ، فأجابت الوزارة بما يأتى : « ليس فى وسع وزارة المعارف الاعتراف بالشهادة التى تمنحها الجامعة لمتخرجيها بالكيفية المرغوبة ما دامت بعيدة عن الاشراف على الدراسة فيها » .

ولما كانت الوزارة معتزمة انشاء جامعة أميرية فسيكون بالضرورة بين أقسامها كلية للآداب قد تنافس كلية الآداب للجامعة المصرية . فاذا رأيتم تلافيا لهذا التنافس ضم كلية الآداب بالجامعة المصرية الى وزارة المعارف ، فان النظام العام الذى يوضع للجامعة الاميرية سيكون شاملا لها فتصبح نواة لقسم الآداب بها .

ومتى تم هذا الضم شرعت الوزارة فى فحص منهج الدراسة بهذه الكلية ونظام الامتحان بها ليكون ذلك توطئة لتقدير درجة الشهادة التى تمنحها .

فاذا ما وافقت ادارة الجامعة على وجه النظر هذه فان وزارة المعارف مستعدة للنظر فيما يلزم لتحقيق هذا الفرض .

ونظرا الى ان الجامعة المصرية المؤسسة فى سنة ١٩٠٨ تحت رئاسة سمو الأمير أحمد فؤاد ـ جلالة الملك فؤاد الاول ـ انما كان الفرض منها القيام بأمر التعليم العالى الحر ، مقام الحكومة التى لم تكن وقتئذ لتوجه العناية الكافية الى هذا الامر .

ونظرا الى ان الجامعة المصرية لقلة مواردها ولعدم اعتبار شهادتها فى التوظف بوظائف الحكومة لا تستطيع أن تتم تكوينها بانشاء الاقسام المختلفة للعلوم . بل هى

بحيث لا تستطيع بسهولة أن توسع كلية الآداب الى الحد المرغوب فيه .

ونظرا الى أن الذى يهم القائمين بالجامعة ، هو ان توجد بالبلاد جامعة مستقلة حرة يرتقى فيها التعليم العالى الى المستوى الذى يأتلف مع أطماع البلاد فى الارتقاء العلمى . لذلك رحبوا بفكرة توحيد الجهود التعليمية واندماج الجامعة المصرية فى الجامعة الجديدة . وأهم ما اشترطوا لذلك ضمانة حرية الجامعة الجديدة فى ادارتها المالية ووضع برامجها وتنفيذها ثم استيفاء آثار الحركة القومية المباركة التى أوجدت الجامعة المصرية . ولهذا اقترح أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية على جمعيتهم العمومية أن تفوض مجلس ادارتها فى تسليم الجامعة الى وزارة المعارف بالشروط التى لا تخرج فى شىء عن ضمانة حرية التعليم واستقلاله واستبقاء الحركة القومية نحو التعليم فى سنة ١٩٠٨ فقررت الجمعية العمومية ذلك بالاجماع وندب مجلس الادارة الى تحقيق هذه الغاية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية .

بناءا على هذه الاعتبارات

اجتمع حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيس الجامعة المصرية وحضرة صاحب المعالى أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف فى يوم الاربعاء ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣ بوزارة المعارف العمومية لتحقيق هذه الغاية .

وبعد الاطلاع على الوثائق الآتية :

١ – كتاب وكيل الجامعة المصرية الى وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٢٣ .

٢ – جواب وزارة المعارف العمومية المؤرخ فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٣ ردا على ذلك الكتاب .

٣ – الاقتراح المقدم من أحد عشر عضوا من أعضاء الجامعة المصرية الى جمعيتها العمومية .

٤ – محضر جلسة الجمعية العمومية للجامعة المصرية المنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

٥ – محضر جلسة مجلس ادارة الجامعة المصرية المنعقدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ .

٦ – مشروع لائحة الجامعة الجديدة .

٧ – مشروع الامر العالى بتأليف الجامعة المذكورة .

بعد الاطلاع على هذه الوثائق وارفاق صورها بهذا المحضر .

وبعد تبادل النظر فى كل جهة من جهاته بين الطرفين تم الاتفاق على ما يأتى :

المادة الاولى

قد تنازل باسم الجامعة المصرية حضرة صاحب الدولة حسين رشدى باشا رئيسها عن هذه الجامعة مع كل ما تمتلكه من منقول وعقار الى وزارة المعارف العمومية على الشروط الآتية :

١ – ان تكون الجامعة المصرية معهدا عاما محتفظة بشخصيتها المعنوية وتدبر شئونها بنفسها بكيفية مستقلة تحت اشراف وزارة المعارف العمومية كما هى الحال فى جامعات أوروبا .

٢ ــ أن تقوم الحكومة باتمام النظام الحالى الذى لا يشمل سوى كلية فى الآداب بأن تدمج فى الجامعة مدرستى الحقوق والطب بعد تحويلهما الى كليتين وان تضم اليها كلية للعلوم . ويجوز أن تضم اليها كليات أخرى فيما بعد .

٣ ــ أن تستعمل نقود الجـامعة البالغ قدرها نحو ستة وأربعين ألف جنيه فى البناء احتراما لشروط بعض الواقفين .

٤ ــ أن تحترم تعهدات الجامعة نحو أساتذتهاوموظفيها الحاليين . أما فيما يتعلق بالدكتور طه حسين فقد رؤى نظرا لحالته الشخصية أن يبقى أستاذا بكلية الآداب .

٥ ــ أن يكون من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى عضوا أو أكثر فى مجلس ادارة قسم الآداب وفى مجلس ادارة الجامعة وذلك فى الدور الاول من التشكيل استيفاء لآثار النهضة القومية التى أوجدت الجامعة المصرية .

المادة الثانية

قبل حضرة صاحب المعالى أحمد زكى أبو السعود باشا وزير المعارف العمومية باسم هذه الوزارة هذا التنازل واستلام الجامعة المصرية وما تملك من منقول وعقـار لادماجها فى الجامعة الجديدة بالشروط الخمسة المبنية بالمـادة الاولى .

المادة الثالثة

ينفذ هذا الاتفاق بعد التصديق عليه من مجلس ادارة الجامعة المصرية الحالى .

المادة الرابعة

كتب من هذا الاتفاق نسختان تحفظ احداهما فى وزارة المعـارف العمومية وتحفظ الثانية فى محفوظات كلية الآداب التابعة للجامعة .

تحريرا بوزارة المعارف العمومية
فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٢٣
رئيس الجامعة المصرية
حسين رشدى

وزير المعارف العمومية
أحمد زكى أبو السعود

رسالة الجامعة

وعلى اثر تكوين الجامعة الجديدة وضعنا لهـا قانونا رأى الشارع فيه ان رسالة الجامعة يجب أن تكون أوسع مجالا من أن تحد بحدود معينة ، فجاء نص رسالتها مرنا يتسع لكل ما تقدر عليه من الالوان المختلفة لخدمة العلم والقيـــام بالتعليم . وقد جاء في مادته الثـانية « ان اختصاص الجامعة يشمل كل ما يتعلق بالتعليم العالى الذى تقوم به الكليات التابعة لها . وعلى وجه العموم ، فان عليها مهمة تشجيع البحوث العلمية والعمل لرقى الآداب والعلوم فى البلاد » .

واعتمادا على هـذا النص المرن ، الذى يتناول كل تطور جامعى لخدمة العلم والتعليم والأداب والفنـون المختلفة فى البلاد . اعتمادا على هذا النص كانت رسالة الجامعة متعددة النواحى .

فمن رسالة الجـامعة ان تقوم البحوث العـلمية فى العلوم وفى الآداب التى تنتج عندنا كما أنتجت عند غيرنا الزيادة فى النظريات العلمية التى هى فى تطور مستمر ، والتى تنتج الوصول الى اكتشافات جديدة تضـاف الى ما اكتشفته الجامعات الاخرى مما له صبغة علمية بحتة ، ومما له تطبيقات عملية تنفع الناس فى أن تسخر لهم قوى الطبيعة وموارد الطبيعة . وليس خافيا ان الجامعة

اذ تقوم بهذه الرسالة تحمل عن مصر واجبها من المشاركة العامة فى رقى العلوم والمعارف فى العالم .

ومن رسالة الجامعة تربية شبيبة الاجيال المتعاقبة لتهيىء للبلاد قادتها فى جميع مرافقها . ولا شك ان قوة الأمة ومنعتها واحتمالها صنوف المزاحمة على الحياة ليست آخر الامر الا نتيجة لتربيتها الجامعة .

ومن رسالة الجامعة نشر الثقافة العلمية والادبية فى جميع الطبقات سواء أكان ذلك باباحة الانتساب الى معاهدها المختلفة من غير قيد ولا شرط ، أم بالقاء المحاضرات العامة فى العلوم والآداب والفنون ، أم بنشر المؤلفات فى كل فرع من الفروع .

ومن رسالة الجامعة مساعدة التطور الاجتماعى بكل ما فى وسعها من ضروب التجديد فى اللغة ، التجديد فى النثر الشعر ، التجديد فى نظرة الناس الى الفنون الجميلة والبحث فى وجوه ترقيتها وشيوعها . ولا يفوتنى أن أنبه الى ان هذه الرسالة تتناول أيضا الموسيقى والغناء ، لما لهما من الاثر الطيب فى الاخلاق ، بل لانهما كذلك لهو جميل لابد منه . وعلى كل أمة أن ترقى أسباب لهوها المرح كما عليها أن ترقى أسباب جدها العابس .

وأخيرا ، فان الجامعة بما هى من أكبر الوحدات الاجتماعية عددا وأسماها مكانة ، وأخطرها مسئولية ، وأشملها رسالة هى بكل أولئك مصدر اشعاع يشع منه التضامن القومى . ففى العائلة يولد التضامن ، وفى المدرسة ينشأ ، وفى الجامعة يشب ويؤتى كل تمراته ، ويضرب المثل الاعلى للتضامن فى جميع طبقات الشعب .

وبهذه المناسبة أنبه على سبيل الاستطراد ان خطأ الجمهور فى فهم رسالة الجامعة من أنها تنحصر فى تحضير موظفين لادارة الحكومة . والواقع ان هذا الفهم لا ينبغى أن يكون من أغراض الجامعة الا عرضا .

ويتصل بخطأ الجماهير فى فهم أغراض الجامعة ، تلك المسألة التى كانت شائكة قليلة الانصار فى الرأى العام . وهى مسألة قبول الفتيات المصرية طالبات فى الجامعة لهن ما لاخواتهن الطلبة من الحقوق ، وعليهن ما عليهم من واجبات . ولا أخفى اننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الاسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشابات بأخواتهن فى الدرس ، فقد حدث ان طلب الى بعض عمداء الكليات فى أول سنة لافتتاح جامعة فؤاد أن نقبل فيها البنات الحائزات للبكالوريا ، فأسررت لهم فى ذلك الحين ان هذه المسألة شائكة ، وانى أشك فى رضا الحكومة عنها . وعلى ذلك قررنا فيما بيننا أن نقبل البنات الحائزات على البكالوريا ، من غير أن تثار هذه المسألة فى الصحف أو فى الخطب ، حتى نضع الرأى العام والحكومة معا أمام الامر الواقع . وقد نجحنا فى ذلك . وبعد أن سرنا فى هذا النهج عشر سنوات حدث ما كنا نتوقعه ، فقد قامت ضجة تنكر علينا هذا الاختلاط ، فلم نأبه لها ، لاننا على يقين من ان التطور الاجتماعى معنا ، وان التطور لا غالب له . ومعنا العدل الذى يسوى بين الأخ وأخته فى أن يحصل كلاهما على أسباب كماله الخاص على السواء ، ومعنا فوق ذلك

منفعة الامة من تمهيد الاسباب لتكوين العائلة المصرية على وجه يأتلف مع أطماعنا في الارتقاء القومي ــ كل أولئك جعلنا لا نحفل بهذه الضجة التي ما لبثت ان ذهب بها الزمان !

فكرة اصبحت حقيقة

وفى ٧ فبـراير سنة ١٩٢٨ احتفلت الجامعة بوضع الحجر الاساسي لمبانيها الحالية بحضور جلالة الملك فؤاد وكان هذا اليوم تاريخا مشهورا . ففى منتصف الساعة الثانية عشرة أقيم احتفـال كبير فى المكان الجـديد بالجيزة دعي اليه علية لقوم من الامراء ورجال الدين والوزراء والآداب . وبعد أن وصل الملك فؤاد ، وقف وزير المعارف في ذلك الحين على الشمسى باشا ، فألقى خطبة بين يديه . ودعا الملك لوضع الحجر الاساسي بيده. وألقيت أنا خطبتى كمدير للجامعة . وقد سجلت فيها الأدوار التى مر بها التعليم فى مصر ، وهى ثلاثة أدوار :

دور الدعاية ، ودور البدء فى التنفيذ ، ودور التمام .. فأما الدور الاول فيبتدىء من يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ اذ اجتمع نخبة من أهل الغيرة على التربية فى دار المرحوم سعد زغلول باشا وتعاقدوا على الدعوة لانشاء الجامعة ، وقرروا فيما قرروا أن تكون الجامعة بمعزل عن السياسة . وقد أقبل الناس على الاكتتاب فيهـا والتبرع لهـا . واجتمعت جمعية المكتتبين فى ديوان الاوقـاف فى ٢٠ مايو سنة ١٩٠٨ تحت رياسة الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد الاول) وسموها الجامعة المصرية، ونفحتها الحكومة اعانة سنوية ، كمـا نفحتها الاوقاف خمسمائة جنيه اعانة سنويا أيضا .

أما دور التمهيد ، فكانت بمحاضرات الثقافة العامة التى كان يشرف عليها يوميا رئيس الجامعة وبارسال بعثات علمية للجامعة بلغ عددها أربعة وعشرين للتخرج فى العلوم ، وليحضروا أنفسهم ليكونوا معلمين فيها .

وأما دور التمام ، فكان بنقل الجامعة القديمة الى الجامعة الجديدة على نحو ما وصفت فى السطور السابقة وقد بلغ عدد طلبة الجامعة فى سنة ١٩٢٨ ويوم تأسيس مبانيها ٢٣٤١ طالبا . وقد تضاعف هذا العدد بعد ذلك حتى وصل الى ما وصل اليه الآن .

الفصل الرابع عشر :

من الوزارة إلى المجمع اللغوى

كيف دخلت الوزارة

لما أسند الملك فؤاد الاول الى محمد محمود باشا أمر تأليف الوزارة فى يونية سنة ١٩٢٨ دعانى وقتئذ الى الاشتراك معه فى الحكم ، فاعتذرت له مؤثرا العمل كمدير للجامعة بعيدا عن السياسة ومشاكلها ، فقال لى رحمه الله :

ـ وهل يرضيك يا صديقى أن تتركنى وحدى ؟! ..

فمست هذه العبارة شعورى ، وقبلت الاشتراك معه فى الوزارة .. وكان من حظى أن أتولى وزارة المعارف ، وهى الوزارة التى تتفق وميولى الشخصية وما أهدف اليه من خدمة الامة عن طريق العلم والتربية والتعليم ، طريق الحرية والاستقلال ، فان التعليم هو الاساس الذى يبنى عليه تحقيق الاطماع القومية . ولو ان العظمة القومية التى تبغيها مصر تنال بالجهل ، وبتفكك الروابط القومية الدالة على عدم التربية ، لكان ذنبا علينا أن نفكر فى حال التعليم والاخلاق عندنا . ولا جدال فى ان العلم ضرورى لتقدمنا بل هو ضرورى لحياتنا الحاضرة ،

وأنه هو السلاح الوحيـد الصالح للانتصار فى معترك الحياة للفرد ، والعامل الوحيد للاكتشافات والاختراعات وقوام هذه المدنية الحديثة . كما ان تربية الاخلاق هى أساس قوة الامم .

وقد قال جوستاف لوبون : « ان الرومانيين فى زمن انحطاطهم كانوا أشد ذكاء من أجدادهم الاشداء ، ولكنهم فقدوا الخواص الاخلاقية كالصبر والعزيمة ، والثبات ، والاســـتعداد لتضحية النفس فى سبيل الغـــاية ، والاحتفاظ باحترام القوانين . تلك الخواص الاخلاقية كانت هى سر عظمة آبائهم الاولين » .

بعد ذلك أعود ، فأقول ان وزارة المعارف حين أسندت الى ارتحت للعمل فيها لما قدمت . فقد اهتممت أول ما اهتممت بتطبيق اللامركزية ، وقسمنا العمل فيهـــا باعتبار ان الوزير رجل سياسى ، لا يشتغل الا بالمشروعات الجـديدة وتطبيق سياسة الوزارة ، وليس له معــرفة بموظفى الديوان ، فأمرهم ينبغى أن يتعلق بوكيل الوزارة وشهادات المراقبين .

العودة للجامعة

لم أستمر طويلا فى وزارة المعارف ، لان وزارة محمد محمود باشا لم يزد عمرها عن خمسة عشر شهرا وبضعة أيام اذ تألفت فى ٢٥ يونية سنة ١٩٢٨ واستقالت فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٢٩ بعــــد عودة رئيسها من مفاوضاته بلندن مع مســـتر هندرسون . وقــد اعتكفت بين كتبى وأوراقى حتى كانت أوائل سنة ١٩٣٠ حين استدعيت للعودة مديرا للجامعة ، فارتحت لاستئناف نشاطى بين أبنائى شباب الجامعة . وبين زملائى أساتذتها ، واغتبطت

كل الاغتباط لانى أمضيت عهدا غير قصير فى العمـل الجامعى ، وألفت هذه البيئة الجامعية التى تقوم على الاخلاص للعلم والتضحية فى خدمته ، والاستقلال فى الرأى والفـكر والعمل - وأقول الاستقلال لأن أساس التعليم الجامعى حرية التفكير والنقد على وجه الاستقلال، ولأن التربية الجامعية قوامها حرية العمل والبعـد عن التأثيرات الحكومية وتأثيرات البيئات العامية وعن تأثيرات البيئات السياسية المختلفة .

استقالتى من الجامعة

وقد حرصت منذ توليت منصب مدير الجامعة على أن تكون بعيدة عن هذه التأثيرات وأن يكون استقلالها محل الاحترام والقداسة . ولكن حدث فى مارس سنة ١٩٣٢ ان اعتدت وزارة المعارف على هذا الاستقلال ، فنقلت الدكتور طه حسين من عمادته بكلية الآداب الى احدى الوظائف بديوان الوزارة دون أخذ رأى الجامعة وان لم تكن الوزارة فى ذلك قد جاوزت حدود القانون الجارى العمل به الا انها جاوزت حدود التقاليد الجامعية، فغضبت لهذا الاعتداء على هذه التقاليد ، وقابلت دولة رئيس الوزراء فى ذلك الحين اسماعيل صدقى باشا ، وشرحت له هذا الموقف الذى يتنافى مع التقاليد الجامعية ، ويسىء الى الجامعة وقلت له ان الجامعة لا تستغنى عن طه حسين . واقترحت عليه تلافيا للضرر ، واحتراما لرأى الوزير حلمى عيسى باشا ، أن يرجع الدكتور طه بك أستاذا بكلية الآداب لا عميدا . وقد وافقنى رئيس الوزارة على اقتراحى ، وفى اليوم التالى علمت برفض اقتراحى ، وتنفيذ رأى الوزير . فلم أذهب الى الجامعة ، وحررت استقالتى وبعثت بها الى وزير المعارف العمومية فى هذا الكتاب التالى :

« هليوبوليس ٩ مارس سنة ١٩٣٢ .

« حضر صاحب المعالى وزير المعارف العمومية »

« سيدى الوزير

« أتشرف بأخبار معاليكم انى أسفت لنقل الدكتـور طه حسين عميد كلية الآداب الى وزارة المعارف ، لان هذا الاستاذ لا يستطاع فيما أعلم أن يعوض الآن على الاقل ، لا من جهة الدروس التى يلقيها على الطلبة فى الادب العربى ومحاضراته العامة للجمهور ، ولا من جهة هذه البيئة التى خلقها حوله وبث فيهـا روح البحث الادبى وهدى الى طرائقه . ثم أسفت لان الدكتور طه حسين أستاذ فى كلية الآداب تنفيذا لعقد تم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف وعلى الاخص لان نقله على هذه الصورة بدون رضى الجامعة ولا استشارتها كما جرت عليه التقاليد المطردة منذ نشأة الجامعة فيما أعرف — كل ذلك يذهب بالسكينة والاطمئنان الضروريين لاجراء الابحاث العلمية . وهذا بلا شك يفوت على أجل غرض قصدت اليه من خدمة الجامعة .

« من أجل ذلك قصدت يوم الجمعة الماضى الى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، واستعنته على هذا الحادث الجامعى الخطير ، واقترحت على دولته تلافيا للضرر من ناحية ، واحتراما لقرار الوزير من ناحية أخرى أن يرجع الدكتور طه حسين الى الجامعة أستاذا لا عميدا ، خصوصا أنه هو نفسه ألح على فى أن يتخلى عن العمادة منذ شهر فلم أقبل ، فتقبل دولة الرئيس هـذا الاقتراح بقبـول حسن ، وأكد لى انه سيشتغل بهذه المسألة منذ الغد فاشتغل بها الى أن علمت الآن ان اقتراحى غير مقبول وان قرار النقـل نافذ بجملته وعلى اطلاقه .

ومن حيث انى لا أستطيع أن أقر الوزارة على هذا التصرف الذى أخشى أن يكون سنة تذهب بكل الفروق بين التعاليم الجامعية واغيارها ، أتشرف بأن أقدم بهذا الى معاليكم استقالتى من وظيفتى ، أرجو قبولها كما أرجو أن تتقبلوا شكرى على ما أبديتم من حسن المجاملة الشخصية مدة اشتراكنا فى العمل ، وأن تتقبلوا فائق احترامى » .

ثلاث مخالفات !

هذا هو خطاب استقالتى . وهو يدل على ان وزارة المعارف ارتكبت فى حادث نقل الدكتور طه حسين ثلاث مخالفات : الاولى ــ خاصة باستقلال الجامعة ، والثانية ــ خاصة بمصلحة التعليم الجامعى وحرمانه من هــذا الاستاذ النابغ ، والثالثة ــ خاصة بالعقد الذى أبرم بين الجامعة القديمة ووزير المعارف حين نقلهـــا الى الجامعة الجديدة وقد اشترط فى هذا العقد ان يكون الدكتور طه حسين أستاذا بكلية الآداب .

قبلت استقالتى . ومكثت بعيدا عن الجامعة حتى ابريل سنة ١٩٣٥ حين جاء نجيب الهلالى باشا وزيرا للمعارف فى وزارة محمد نسيم باشا الثانية ، فجاءنى وطلب الى العودة الى الجامعة ، فاشترطت أن يعــدل قانونها بحيث ينص فيه على أنه لا ينقل أستاذ منها الا بعد موافقة « مجلس الجامعة » وقد بر نجيب باشا بوعده ، وطلب تعديل القانون ، وعدل فعلا .

وفى تلك السنة طلبت أن يضم الى الجــامعة بعض الكليات فضمت كلية الهندسة ، وكلية التجارة ، وكلية الزراعة ، وكلية الطب البيطرى .

مكثت مديرا حتى أوائل أكتوبر سنة ١٩٣٧ . وفى ذلك الحين اشتد الخصام بين طلبة الجامعة على المسائل الحزبية ، لان الاحزاب كانت تتصل بهم اتصالا يضر بالاخاء الجامعى ، ويسقط قيمة الشمائل الجامعية ، فطلبت من وزارة الداخليـــة تعيين كونستبلات لحفظ النظام ، لان البوليس لا يجـوز له أن يدخــل الحرم الجامعى ، فلم تجب الداخلية طلبى . لذلك استقلت للمرة الثانية .

وبعد ثلاثة أشهر ــ أى فى ٣١ ديسمبر من تلك السنة ــ تألفت وزارة محمد محمود باشا الكبرى . وقد اشتركت فيها جميع الهيئات السياسية ما عدا الوفد ، والهيئة السعدية ، وكنت وزير دولة فى هذه الوزارة ، ثم أجريت الانتخابات ، وكلف محمد محمود باشا مرة ثانية بتأليف الوزارة ، فكنت بها أيضا وزير دولة ، ثم وزيرا للداخلية بضعة أشهر . ثم ظهر لى ان المصلحة السياسية تقضى باشتراك الهيئة السعدية فى الوزارة ، فعرضت هذا العرض على خشبة باشا ، وأصررت على أن أخرج من الوزارة لافسح الطـــــريق لغيرى من السعديين .

ودعت الجامعة سنة ١٩٤١

وبعد ذلك بقليل زارنى الدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف فى ذلك الحين ، وطلب الى الرجوع الى الجامعة ، فاعتذرت ، ثم جاءنى مرة ثانية من قبل محمد محمود باشا ، وألح على ورجانى أن أضع شروطى ، فقلت :

ـ لا شروط لى الا أن يبتعد رجال الحكومة عن الاتصال بالطلبة ، لان اتصالهم بهم كان يفضى دائما ـ كما ذكرت ـ الى فقدان الاخاء الجامعى بينهم . وذلك من أضر الاشياء على التربية الجامعية .

فأجابونى لطلبى ، وقبلت الرجوع الى الجامعة . ولكن لم يمض قليل حتى أخبرنى أحد الوزراء أن الطلبة متصلون بوزارة الاحرار الدستوريين فقدمت استقالتى لمحمد محمود باشا ، فاعتذر ، وأكد لى أنه لا يعلم ذلك وأنه سيصدر أمرا مشددا بعدم اتصال الطلبة بالوزراء لاغراض سياسية فبقيت فى الجامعة الى سنة ١٩٤١ اذ عرض على رئيس الحكومة وقتئذ حسين سرى باشا أن أكون عضوا فى مجلس الشيوخ ، فقبلت ذلك ؛ لانى أحسست بأنى محتاج الى الراحة بعض الشيء من أعمال الجامعة بعد أن خدمتها فى عهدها القديم وعهدها الجديد زمنا طويلا . ثم توليت بعد ذلك رياسة « مجمع اللغة العربية » ومكثت فيه مع رجال أحبهم وهم رجال اللغة والعلم والادب .

الفصل الخامس عشر :

الأخلاق وكيف ينبغي أن تكون لتحقيق سلام عالمي

التعاون في سبيل السلام

التعاون العام بين أمم العالم موجود على وجه متقطع وكيفما اتفق أن يكون . ليس خاضعا لنظام معين . غير أن هذا ليس هو التعاون الذى يقصد اليه ميثاق الاطلنطى بل التعاون المقصود بهذا الميثاق هو التعاون المستمر الذى يمنع الاعتداء ويؤدى الى السلام الدائم .

بادىء بدء لا ينبغى أن نخدع أنفسنا فيما يعترض هذا التعاون من صعوبات أعسرها تذليلا هو لايمان به . فاذا نحن تشبثنا بسنن الماضى وما ألفناه من أخلاق الناس على العموم وأخلاق قادة الشعوب على الخصوص، وما سجل التاريخ من ألاعيب السياسة وغدرها وقدرنا قوة أنصار الحرب والعاملين عليها والمنتفعين من ورائها ويئسنا من أن نقطع الصلة بين ماضى الانسانية وبين مستقبلها فى هذا الصدد ، فما أشبه الليلة بالبارحة

(١) أردنا أن نختتم هذه القصة التاريخية التى أملاها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد على رئيس التحرير بهذه المحاضرة القيمة التى ألقاها سيادته فى قاعة يورت بالجامعة الامريكية فى مساء الجمعة ٢٩ يناير سنة ١٩٤٣ .

وما أشبه التعاون الذى ندعو اليه بنظـام جمعية الامم الماضية . ولا يرى أنصار الاعتداء على كل هذه الجلية الا أنها صلف تحت الراعدة .

أما اذا رجونا الخير وقدرنا ما نحن فيه اليوم من الضرورات الاجتمـاعية والحرج السياسى وقدرنا أن العالم أصبح لا يطيق بعد الآن حروبا على غرار الحرب الحاضرة ، وقدرنا حق قدره الارتقاء الاجتمـاعى فى العالم ، ثم قدرنا أن هذا التعاون المرجو لم يأت طفرة بل هو فكرة اختمرت فى ضمير العالم وتداولتها بالبحث وبالتجربة عدة أجيال ، وقدرنا أن التجـربة القاسية للأخطاء الماضية ستنفع العالم فى تسديد خطـاه الى الخير ، متى قدرنا كل ذلك وجب أن نتقبل مشروع التعاون المانع من الاعتداء والمفضى الى السلام الدائم بغاية الارتياح وآمنا به وعملنا على تحقيق وسائله . فلقد آن لضمير العالم أن ينتبه ويجعل الاخاء الانسانى حقيقة واقعة بعد أن لم يكن الى الآن الا لفظا ليس له ما يدل عليه .

الواقع من أمر الناس فى الامم المختلفة وفى المدنيات المتعاقبة أنهم بوازع من قانون الاخلاق الذى نشأ بنشوء الدولة ، وبوازع من سلطان البوليس والقضاء ، وقد اعتادوا أن يتعـاونوا فى معيشاتهم المدنية بالحسنى وتركوا عاداتهم الاولى فى العدوان والجرى على أحكام « حق الاقوى » التى ألفـوها أزمانا طوالا فيمـا قبل المدنيات المنظمة . هذا هو حال أفراد الناس الآن فى الامم المتمدنة ، منازعاتهم يفصل فيهـا القضاء ويزع سلطان البوليس بعضهم عن الاعتداء على بعض، فأصبحوا

يرون جريمة داعية الي الاحتقـــار ومستحقة للعقاب ما كانوا فى حال البداوة يتمدحون به ويجعلونه مناطا للعزة ومجلبة للشرف والفخار .

اذا ليس الظلم والعنف فى النـــاس أمرا طبيعيا لا مناص منه كما قد يظن ، انما كان ذلك فيهم قبل نظام الدول عادة اعتادها آلافا لا تحصى من السنين ، كان الافراد فى كل لحظـــة محلا لافتراس السباع . اقتضاهم ذلك أن تكون حياتهم فى حرب متصلة ودفاع مستمر . فلما اطمأنوا من هذه الناحية استمرت عادة الهجوم والدفاع فى أنفسهم غير أنها تحولت الى أن تكون حربا بينهم حتى قضت عليها المدنية المنظمة بالبوليس والقضاء .

تلك حال الافراد . وأما حال الامم أو بالاولى حال الحـــكومات فلم تجد كما وجد الافراد تحت ضغط الضرورات الاجتماعية قانونا للأخلاق ولا محاكم تفض النزاع بينها ولا بوليسا يمنع الحكومات من اعتداء بعضها على بعض . بقى فيها روح الفرد الاولى . روح القبيلة روح الاعتداء على الغير استعلاء عليه واستعبادا له وطمعا فى أرضه ومرافقه . وبالجملة بقيت كل حكومة حتى فى هذه المدنية الحاضرة تضمر أن تنتزع بالقوة من أمة اخرى مالها من المرافق من غير وازع ولا حيـــاء . واذن فقد ظفرنا من المدنيات القديمة بأدب للأفراد ولم تظفر بأدب لحكوماتها يمنعها من الاعتداء والطغيان .

هل الحرب طبيعية ؟

ومن العجيب أن الفلسفة اليونانية مع انها استوعبت بحث الاشياء الانسانية لم تتعرض ولا عن طريق التخيل

الى امكان القضاء على الحرب بين الامم ولم تفكر فى تحقيق الاخاء الانسانى العام ولا فى السلام الدائم . بل لعلهـــا شجعت الحرب تارة وقست فى نتائجها تارة أخرى . كذلك الفلسفة الرومانية والفلسفة العربية لم يكن فيهما نظرة فى ذلك الاخاء بين الامم المختلفة كمـــا نظرت كلتاهما فى الاخاء بين أفراد الامة الواحـــدة الا ما سموه « السلم الرومانى » . ومن الخير ألا نتعرض لذكره ؛ لانه لا يفيد شيئا فى موضوع التعاون العـــالمى المنشود .

فأما الحرب من طبع الانسـان فتلك فـــكرة انتزعها كتاب وفلاسفة مما هو الواقع . ومن طريف ما يؤثر عن أنصار الحرب ما نقله ايميل فاجى عن أحد التيازفة أو الصوفية القائلين بوحدة الوجود قال « الحرب الاهية فى ذاتها لانها قانون العالم » . « الحرب الاهية فى المجد الخفى الذى يحيط بها وفى الجاذبية الخفية أيضا التى تجذبنا اليها » . « الحرب الاهية فى الحمـــــاية الموهوبه للقواد العظام » .. الى أن قال « الحرب الاهية بنتائجها التى تعزب عن تقـــــديرات الناس » . قال أميل فاجى كل هذه الجمل تساوى انه يقول : « الحرب الاهية لانها سخيفة » .

وبالجملة فان أهم دليل على طبيعتها هو قدمها . والدم من حيث هو لا يصحح فاسدا ولا يفسد صحيحا . والذى يراه أنصار السلام هو أن الحرب ليست من طبع الانسان كالعائلة والابوة والعمل ، بل هى عادة تأصلت فى نفوس الناس يمكن القضاء عليها كما قضى على الرق ونحوه بوسائل التربية التى لا شك فى أن العالم يتقدم فى

أمرها بنسبة ضميره على اثر تفكير المفكرين فيما يصلح حال الانسان .

اذن لابد من ثورة على القديم فى هذه الناحية أيضا . وقد كانت هذه الثورة أول خاطر فى موضوع السلام الدائم خطر لسوللى وزير هنرى الرابع . ولكن سلامه الدائم لو أنه تحقق لما شمل الا أوروبا فقط . وكذلك كان مشروع الاب سان بير فى أوائل القرن الثامن عشر . ولم تكن تلك الا بوادر لم تفد شيئا . حتى كان آخر القرن الثامن عشر اذ انبعث صوت الاخاء الانسانى من جامعة كونجسبرج حين اقترح أستاذ الفلسفة فيها ايمانويل كنت انشاء حكومة أمم تمنع اعتداء بعضها على بعض . وجه نداء للأمم والملوك قال فيه « ينبغى أن تنظم الامم سلوكها فى كل دولة على قواعد الاخلاق والقانون، كما يجب على الدول أن ترعى هذه القواعد المتبادلة مهما يكن من تمويه الاعتراضات التى تستنتجها السياسية من التجربة . وحينئذ لا تستطيع السياسية الحقة أن أن تخطو خطوة واحدة من غير أن تتبع فيها أوامر على الاخلاق . فان السياسة متى اتحدت بعلم الاخلاق ، لم تعد بعد ذلك فنا صعبا ولا معقداً .

ان الادب يفك العقدة التى لا تستطيع السياسة حلها. يجب اعتبار حقوق الانسان مقدسة ولو ضحى فى ذلك الملوك بأكبر الضحايا . لا يمكن فى هذا الصدد التنازع بين الحق وبين المنفعة . وان السياسة يجب أن تركع أمام الادب .

لكن هل أستمع لهذا النداء الكريم الملوك والحكومات ،

نعم أظن أن حكومات الامم الكبرى التى اجتمعت فى مؤتمر فينا بعد هذا النداء بتسعة عشر عاما قد استمعت لهذا النداء ، لكن لا تفعل به حقيقة ، بل لتخدع به الرأى العام للشعوب الوادعة الطيبة التى قلما تحتمل نصيبا من اجرام حكوماتها . وهاكم مذكرة الوزير جنز زميل مترنيخ رئيس المؤتمر المؤرخـــة فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨١٥ .

« ان أولئك الذين اجتمعوا فى المؤتمر وكانوا يعلمون حق العـــلم طبيعته واغراضه لا يكادون يخدعون على تطوره أيا كان رأيهم فى نتائجه . ان الكلمات الفخمة مثل « اعادة النظام الاجتماعى » و « تجديد المذهب السياسى لاوروبا » و « الســـلام الدائم المؤسس على توزيع السلطان » الخ .. انما نطق بها لتطمين الناس ولتفيض على هذا الاجتماع الحافل كرامة وعظمة . لكن الفرض الحقيقى للمؤتمر ، قد كان توزيع أسلاب المقهورين بين القاهرين » .

أدب السياسة الدولية

هذا نموذج من أدب السياسة الدولية يتخذه الساسة لمجدهم ومجد ملوكهم وليلقوا به دروسا فى الشر والظلم على الناس أجمعين . أفكان الذين اجتمعوا حول مائدة الصلح فى فرساى أصلح نية وأصدق ولا من زملائهم فى فينا من قبلهم بقرن كامل ؟ لقد كان كتاب التاريخ السياسى يظنون أن مؤتمر فينا قد اخفق فى مهمته مع أنه وقى العالم شر الحروب ٣٩ سنة .

فهل كان مؤتمر فرساى أسعد حظا وأجدى على

الانسانية نفعا ، مع أن سلامه لم يزد عمره على العشرين عاما حتى أمكن لاحد الساسة فى الخريف الماضى أن يجمع بين الحرب ويسميها حرب الثلاثين من سنة ١٤ الى سنة ٤٤ . واذا لم يتغير الادب السياسى عما كان فى القرن الماضى . قال الكاتب المعروف «الدس هكسلى» عشية هذه الحرب الحاضرة « ان أدب السياسة الدولية هو أدب القرصان . أدب الخداع . أدب الشيخ الفيكونت الفاسق ، بل لم يتغير هذا الاب منذ عشرين قرنا حين قال الفيلسوف سنيك : هذا هو قانون الانسانية : كل ما هو محرم عليك اتيانه وأنت فرد ، مطلوب منك اتيانه وأنت مدافع عن الدولة .

ترون من ذلك أن للأفراد أدبا جاءت به قوانين الاجتماع داخل كل بلد . فأين أدب السياسة والسياسيين ، والى أى شىء مرده ، الى محكمة الضمير وقد جرى العرف على ان السياسة لا ضمير لها ، أم الى محكمة القانون العام وليس للسياسة الدولية محكمة الا الحرب . قال برتلمى سانتهلير لمناسبة نداء كنت :

« لقد أعلن كنت هذه المبادىء القديمة منذ ستين عاما . ولكننا على رغم ما قطعت الافكار العامة من مراحل التقدم فى هذه المدة ، ما أبعدنا الى الآن عن الغرض الذى ترمى اليه حكمة الفيلسوف . والظاهر ان الملوك والامم لم تتلق بعد دروسا قاسية .

نظن الآن ان العالم قد تلقى هذه الدروس القاسية منذ الحرب الماضية فشرع فعلا فى انشاء جمعية الامم . لكنها لم تنجح لانه عند تنفيذها كان الساسة قد نسوا ويلات الحرب ورجعوا الى أخلاق السياسة الدولية فلم

تنجح تجربتها وجاءت الحرب الحاضرة بويلاتها التى لا تطاق ، تلقاء هذه التجربة القاسية صدر ميثاق الاطلنطى فى أغسطس سنة ١٩٤١ .

وهنا يتساءل أنصار السلام : هل انشاء عصبة أمم جديدة خير من عصبة الامم القديمة يمكن أن يوصل الى الغاية النبيلة التى أشار اليها المستر ايدن بقوله : « أن غايتنا هى انشاء نظام عالمى يحقق التقدم السلمى لجميع الشعوب »

العقل والتجربة متفقان على ان نظام عصبة الامم التى لها قوة مسلحة لتنفيذ قراراتها ليس خير أداة للسلام الدائم وبالتبع للتعاون العالمى . لان هذه الاداة متى كمل نظامها كانت كما يقول المستر الدس هكسلى « كأنها عصبة مؤلفة للحرب لا للسلام » والواقع ان العنف يولد العنف . ومع ذلك ليس أمام العمليين من أنصار السلام وسيلة سواها فى الحال الراهنة .

غير ان هذه الوسيلة لا توصل الى الغاية الا اذا اقترن بها أبطال الاستعمار بجميع أسمائه وألوانه . على هذا الوضع يمكن أن تستل من نفوس الامم الصغيرة تلك الاحقاد التى ولدها استعلاء قوم على قوم . وذلك هو أفسد ما يكون للأخلاق التى ينبغى أن تتخلق بها الامم لتحقيق تعاون عالمى . وفى هذه الحالة الشعوب التى لا تستطيع أن تقوم بنفسها لا تتبع ادارة النظام العالمى الذى أشار اليه وزير الخارجية البريطانية تأخذ هذه الادارة بيدها حتى تستكمل مشخصات الامم التى تستطيع أن تكون عضوا مستقلا نافعا فى التعاون العالمى .

ما دام غرض التعاون العالمى هو القضاء على نظرية حق الاقوى مع فسادها فى نظر المنطق القانونى ، وما دام الاستعمار هو أظهر آثار حق الاقوى ؛ فلا بد للتعاون العالمى من القضاء عليه بجميع أسمائه .

كما أن الفلسفات القديمة لم تتعرض لفكرة السلام الدائم كما ذكرت آنفا . كذلك هى لم تتعرض لفكرة استنكار الاستعمار . وأول من تعرض لها من الفلاسفة على وجه بين هو الفيلسوف بنتام ، فانه هو وأنصار مذهبه يبغضون الاستعمار ويرونه غير نافع للأمم المستعمرة ؛ فوق أنه مفسد لأخلاق الامم المستعمرة . قال برتران رسل : « اذ كانت الثورة الفرنسية فى الصميم من أمرها ، كتب بنتام رسالة الى تالران عنوانها « حرروا مستعمراتكم » .. ولم يكن ذلك رأيه فى المستعمرات الفرنسية فحسب بل رأيه كذلك فى المستعمرات البريطانية . وأنه حمل صديقه اللورد لندون على اعتناق مذهبه فقال فى مجلس اللوردات فى سنة ١٧٩٧ « لا يمكن أن يسدى الى أسبانيا خير ، أفضل من تخليصها من لعنة مستعمراتها » .

وأخيرا فى عهد جمعية الامم السابقة عرض على الامم المستعمرة فى فرص عدة أن تنزل عن مستعمراتها لتضعها تحت السيادة الدولية فرفضت كلها بلا استثناء . غير أنه ما دام على ظهرها امم غالبة وامم مغلوبة ، فلا رجاء فى التعاون باخلاص . وكأنى بالامم المغلوبة على أمرها تقول للقاهرين دعاة السلام : انظرونا نتحلل

من ذلة التبعية ثم شأنكم والسلام الدائم قرروا فيه ما تشاءون .

بقى أن نشير الى أن بعض الكتاب السياسيين يرون أن الاستعمار والوطنية أمران متلازمان ، وأن من العسير أن يحب قوم وطنهم دون أن يقترن هذا الحب بالاستعلاء على الامم الضعيفة أو دون أن يبغضوا غيرهم . هذا قد يكون حقا فى أمر الوطنية الحادة الجامحة التى هى من سلالة عصبية القبيلة . أما الوطنية المدنية أو وطنية المستقبل التى يسيطر عليها التدبر العقلى فانها لا تتنافى مع حب الانسانية جمعاء . والواقع اننا نرى الرجل الفاضل مع حبه لنفسه يسعى الى سعادة غيره فلا مانع اذا يمنع قوما يحبون وطنهم ، من أن يسعوا فى اسعاد الاوطان الاخرى .

التعاون العالمى ممكن

ـ أيها السادة : نسوق كل هذه المقدمات للوصول الى نتيجتين :

الاولى ـ ان التعاون العالمى ممكن متى اقترن به الغاء الاستعمار على الوجه الذى ذكرناه .

الثانية ـ ان أب السياسة الدولية الذى جرى عليه العرف الى الآن بعيد عليه أن يحقق التعاون العالمى . بل لابد لهذا التعاون من أدب دولى جديد .

ونظرا لان أسباب الحروب مهما اختلفت مردها كلها الى الحالة البسيكولوجية للأمم وعلى الخصوص الحالة الاخلاقية لقادة الامم . نظرا الى ذلك قد بحث أنصار

السلام فى الوسائل التى تؤدى الى منع الاعتداء من جانب أمة على أخرى . وان أوفى بحث أعرفه فى هذا الصدد تلك المحاولة الجريئة الموفقة التى حاولها الكاتب المعروف الدس هكسلى فى كتابه « الغاية والوسائل » .
لم يقنع هكسلى بطريقة « كنت » التى لا يزال الساسة يسيرون عليها سواء أكان ذلك فى جمعية الامم السابقة أم فى النظام العالمى المستقبل ، بل هو يرمى الى أعمق من ذلك أثرا وأبقى على الزمان بقـــــاء . وهو أن يسعى الافراد والجماعات والحكومات الى تربية الجيل على صورة تتدرج نتائجها للوصول الى الانسان المثالى .
جعل هكسلى هذا المثل الاعلى فى الانسان الذى سماه « الانسان اللامرتبط » فى ذلك الانسان غير المرتبط باحساساته ورغباته الجسمية غير المرتبط بشهوته فى السلطة والحيازات المختلفة . غير مرتبط بموضوعات هذه الرغبات المختلفة ، غير مرتبط بغضبه وحقده ، غير مرتبط بحيـــاته الخـــاصة ، غير مرتبط بالثروة ولا بالمجد ولا بالوضع الاجتماعى ، غير مرتبط حتى بالعلم وبالفن وبالتأمل المجرد وبحب الانسانية . بذلك يصل المرء الى حيازة جميع الفضائل . وأن عالما مؤلفا كله أو جله أو على الاقل قادته من أفراد لهم هــذه الفضائل ، لجدير بأن يسمى العالم الكامل . غير ان هكسلى لم يخدع نفسه على امكان الوصول الى تلك الوسائل التى تربط نظريات الســـــياسة الداخلية والسياسة الدولية والحرب والاقتصاد والتربية والدين والادب كل أولئك بنظرية الطبيعة الآخرة للحقيقة . بل قال فى آخر كتابه . « لا شك ان هذه المهمة قـد نفذت

على وجه ناقص . على أني لا أعتذر عن محاولتي اياها فان رسم مذهب ولو رسما جزئيا خير من العدم الكلى .

ونحن من جانبنا نترك الى الزمان الطويل تحقيق الرغبات الشريفة لهذا المؤلف ، ونقبل على مذهب أقرب تناولا ونقنع بالهدف الحاضر وهو التعاون العالمي الذى ارتضته السياسة الدولية للأمم المتحدة . فماذا ينبغى أن تكون الاخلاق لتحقيق هذا التعاون .

اذا كان هكسلى يعتد هكذا بسمو النفس الانسانية فى طبيعتها الى حد أنه يرى من الممكن أن تتحقق نظرياته ، فليس فى ذلك الا قريبا جدا من رأى الفيلسوف «كنت» فى سمو الطبيعة الانسانية حين يقول : « ليس فى الاستعدادات الطبيعية للانسان شيء من مبدأ للشر . وأن السبب الوحيد للشر هو ألا يرد الطبع الى قواعد . الا أن الانسان ليس فيه من أصل الا للخير . ليس لهذا المعنى فقط أرى ان اختار منهاج « كنت » مرجعا لصورة هذا البحث الذى أبحثه . بل أيضا لأنه صاحب فكرة الحكومة الدولية العامة . وبهذه المثابة قد يكون منهاجه الاخلاقى أقرب المناهج نسبا للتعاون العالمي . وقد يكون فوق ذلك هوالمناسب لاعتقادات الناس فى هذا الزمان.

لتحقيق التعاون العالمي ينبغى أن تقوم كل أمة بواجباتها نحو ذاتها وواجباتها نحو الامم الاخرى .

فأما فضائلها الذاتية أو واجباتها نحو ذاتها فالقيام بها أظهر ما يكون فى التربية وفى صور الحكم .

أما التربية فانها فى كل العصور وسيلة لتحقيق غاية معينة . فترون الدكتاتوريات تنشىء أجيالها تنشئة اسبرطية محضة لان غايتها استكمال ما تستطيع من قوة

لتبسط سلطانها على العالم كله أو بعضه . فتجردهم من حركة التفكير الشخصي وحرية النقد وحرية الاجتماع لتبادل الآراء وتنمى فى أنفسهم مبادىء القومية الحادة والاستهانة بحقوق الغير والطاعة العمياء . وبالجملة تكون غاية التربية غاية حربية صرفة أو بعبارة أدق غاية الاعتداء على الاغيار وما فى أيديهم . وليست الديمقراطيات مع الاسف بأحسن حالا من ذلك الا قليلا . فان التربية فيها مع ما بها من الحريات الفردية موجهة الى الحرب أيضا . وفى مثلها العليا نماذج من أبطال الحروب الاولين والآخرين . فمناط المثل الاعلى فى التربية الحاضرة بطل قتل فى ساحة الحرب من اخوانه فى الانسانية أكبر عدد ممكن . لا شك فى أن هذه التربية لا يمكن أن تكون غايتها التعاون العام أو السلام الدائم . بل لابد للعالم ، وقد اعتزم التعاون العام ، أن يغير غاية التربية ، فيستن نوعا من التربية يؤدى الى حب السلام لا الى حب الحرب . يؤدى الى تحقيق الاخاء الانسانى . يؤدى الى ترك المبالغة فى الاعتزاز بالاجناس وترتيبها ترتيبا تحكميا عسى أن يكون الجنس الاخير منها خيرا من الجنس الاول المزعوم . وبالجملة ينبغى أن تترك الى جانب عصبية الانسان الاولى للقبيلة ولمعبودها المحلى الذى صنعه الانسان بيده ، الى ما يقتضيه الاخاء الانسانى والتعاون العالمى من احترام لجميع الاجناس وسعى فى اسعاد من قضت عليه المصادفات الشقية بأن يكون فى سلم المدنية متأخرا عن سواه .

على هذا يجب على الامة فى تربية أبنائها أن تكون غايتها « الانسان المقثف » ووسيلتها الى ذلك :

١ ـ تثقيف ملكات الفرد الطبيعية : ملكات الجسم والعقل والنفس بأن يقوم بمقتضيات حفظ الذات وحفظ النوع بالاعتدال التام ثم بواجب الصدق الذى يسبب له الاقتناع بكرامته وواجب السخاء الشخصى بأن لا يقتر ولا يسرف ، بل ينفق بالمعروف . وواجب كرامته من حيث هو انسان فيرفض أن يكون تبعا لغيره فى غير الحدود المفروضة عليه من جهة كونه عضوا فى جمعية مدنية لها قوانين مرعية الاداء وواجب محاسبة نفسه على كل ما يخطر له من فكر أو يلفظ من قول أو يأتى من عمل . وضابط ذلك كلمة أفلاطون المعروفة « تعرف نفسك بنفسك » أن تعرفها بالدرس الدائم لحالها وسبر غورها فى أعمق طياتها . ثم ينبغى أن يؤخذ الناشىء بتثقيف ملكات عقله بأن يتعلم ما هو ميسر له من العلوم والفنون . قال « كنت » : من ليس مثقفا فهو بهيمة . ومن ليس مؤدبا فهو متوحش .

٢ ـ كذلك ينبغى أن تؤخذ الافراد فى التربية بتعلم القيام بواجباتهم نحو الغير ، مثل حب الانسانية ويعنى به العدل ورعاية الغير وعرفان الجميل والسخاء والمواساة فى الضراء واحترام الاغيار فى أشخاصهم وشرفهم وأموالهم واحترام قوانين البلاد سرا وعلانية . وينبغى فى تثقيف هذه الثلاثة الانواع من الملكات الطبيعة أن يكون ذلك على يد أساتذة أحرار فى مدارس

حرة ليست تابعة مباشرة لسياسة الحكم كلما أمكن ذلك .

***

أما واجبات الامة من حيث صورة الحكم لتكميل ذاتها فينبغى أن تكون الامة دائما مصدر السلطات فى وطنها وأن يشترك أفرادها فى حكمها على الطرق الديمقراطية وأن يكون الحكم فيها لمنفعة المحكومين لا لمنفعة الحكام . وأن تكون ولايات الحكم ضرائب يؤديها الاكفاء من أبنائها لا مزايا يختص بها المقربون من السلطات . ويتفرع على ذلك أن طالب التولية لا يولى .

هذا ما ينبغى من فضائل الامة أو واجباتها نحو ذاتها .

وأما واجبات الأمم بعضها نحو بعض ، فأول ما ينبغى هو أبطال هذا المذهب العتيق للسياسة الدولية مذهب الارتياب والدسائس والتجسس . وأن يستبدل به نقيضه بأن تحل محل هذا المذهب الواجبات الادبيه التى يفرضها قانون الاخلاق على الفرد نحو غيره ، وهى تتلخص فى احترام حقوق الغير والسعى فى اسعاده .

على هذا النحو وعلى هذا النحو وحده يتحقق التعاون العالمى ، وتشمل نعمة السلام كل بنى الانسان .

فهرس

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٤٠ ـ ٨٢

الترقيم الدولى : ٢ ـ ٠٠٠ ـ ١١٨ ـ ٩٧٧ ISBN

العـدد القـادم

٢٠ سـنة

في حجرة الاعترافات

●

بقـلم

دكتور فردريك لويس

●

نقله الى العربية :

دكتور أمير بقطر

يصـدر ٥ يونية ١٩٨٢

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة – ص – ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7. Bishopsthrose Road
London S.E. 26 ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury. B. 25 de Maroc. 990
Caixa Postal 7406, Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ٣٠٠ مليم :ــ

سوريا ٤٠٠ ق٠س ، لبنان ٤٠٠ ق٠ل ، الاردن ٤٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠ فلس ، السعودية ٦ ريال ، السودان ٣٥٠ مليما ، تونس ٦٥٠ مليما المغرب ٨٠٠ فرنكا ، الجزائر ٦٥٠ سنتيما ، الخليج ٤٥٠ فلس ، غزة ٨٠ ليرة ، الصومال ٥٠ بنى ، دايار ٤٠٠ فرنكا ، لاجوس ٦٠ بنى ، اسمرة ٥٠٠ سنتا ، اليمن الشمالية ٥٠ بنى ، اديس ابابا ٥٠٠ سنتا ، باريس ٨ فرنكات ، لندن ٨٠ بنى ، ايطاليا ١٢٠٠ ليرة ، سويسرا ٤ فرنكات ، اثينا ٥٠ دراخمة ، فيينا ٣٥ شلن فرانكفورت ٥ر٣ مارك ، كوبنهاجن ١٠ كرونات ، استوكهولم ١٤ كرونة ، كندا ٢٥٠ سنت ، البرازيل ٣٥٠ كروزيرو ، نيويورك ٢٥٠ سنت ، لوس انجلوس ٣٠٠ سنت ، استراليا ٣٠٠ سنتا ، هولندا ٤ فلورين



هذا الكتاب

قصة أستاذ الجيل » أحمد لطفي السيد باشا ، هي قصة حياة رجل كبير من رجالات مصر والبلاد العربية ، أسهم في المجالات السياسية والفكرية والاجتماعية والتعليمية عشرات السنين .. وكانت قصته في هذه المجالات وغيرها حافلة طويلة مثمرة تلفت الانظار .

وقد صدرت بعض الكتب عن حياة لطفي السيد ، ولكن كتابنا هذا يكتبه هو بقلمه ، مما يجعل للكتاب أهمية خاصة .. فقد شهد الرجل وعمل بنفسه ماكتبه عن نفسه ، ورأى الاشياء رأى العين ، والتقى بالناس وتعاون معهم كما اختلف مع بعضهم خلال العمل التاريخي الذي قام به جيل لطفي السيد منذ بدأت مصر تصحو وتطالب باستقلالها في بداية القرن العشرين الى ما بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

وكتاب الهلال يعتز بنشر هذه القصة الوطنية وتقديم هذه السيرة الشخصية لرجل اختار معاصروه أن يسموه ، «أستاذ الجيل»

